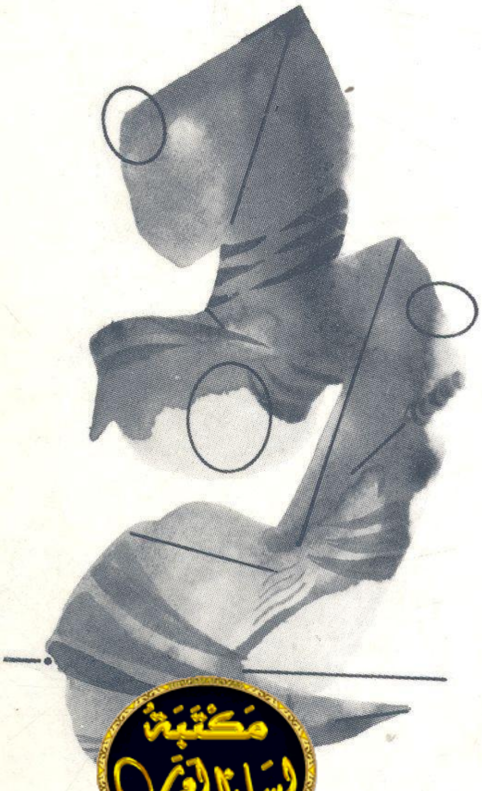
6 محاضرات في الصوت والمعنى



رومان ياكوبسون

ـاظم

تـ ... كم صالح

المركز الثقافي العربي

محاضرات

في الصوت والمعنى

* ست محاضرات في الصوت والمعنى

* تأليف: رومان ياكوبسون

* ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح

* الطبعة الأولى، 1994

* الناشر: المركز الثقافي العربي

* العنوان:

□ بيروت/الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
● ص.ب/113-5158/● هاتف/343701-352826/● تلكس/NIZAR 23297LE/

□ الدار البيضاء/● 42 الشارع الملكي - الأحباس ● ص.ب/4006/● هاتف/307651-303339/
● 28 شارع 2 مارس ● هاتف/271753 - 276838/ ● فاكس/305726/.

6 محاضرات في الصوت والمعنى

رومان ياكوبسون

ترجمة : حسن ناظم
علي حاكم صالح

المركز الثقافي العربي

هذا الكتاب

ترجمة عن الانكليزية لكتاب رومان ياكوبسون، طبعة MIT Press
والصادر تحت عنوان: Six Lectures on Sound and Meaning

«مقدمة المترجمَين»

إن أول ما يوصف به رومان ياكوبسون ذو الاهتمامات المتعددة هو أنه لساني، وعلى الرغم من أهمية دراساته اللسانية إلا أنها بقيت غير مترجمة إلى اللغة العربية، فقد ترجم لياكوبسون كتابان، أولهما كتاب «قضايا الشعرية» الذي ترجمه محمد الولي ومبارك حنون وصدرت طبعته الأولى عن دار توبقال للنشر سنة 1988، وهو كتاب يعنىٰ ـ بالدرجة الأولى ـ بعلاقة الشعرية باللسانيات، وثانيهما كتاب «أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب» الذي ترجمه فالح صدام الإمارة ود .عبد الجبار محمد علي وصدرت طبعته الأولى عن دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد) سنة 1990، والكتاب عبارة عن حوارات أجريت بالتعاون مع كريستينا بوموريسكا ـ التي تزوجها ياكوبسون سنة 1962 ـ أستاذة اللغة الروسية والأدب في معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا، وقد كان هدف الكتاب عرض الفكر المتنوع لياكوبسون، وإعطاء معرفة شاملة باللسانيات وعلاقاتها بالعلوم الأخرى.

تتضح مما سبق أهمية كتاب ياكوبسون «ست محاضرات في الصوت والمعنى» فهو أول كتاب لساني خالص يترجم إلى العربية. وفضلاً عن ذلك، فإن ما عرضه الكتاب وناقشه يشكل حاجة ماسّة لثقافتنا العربية، ويمكن أن نحدد أهم القضايا التي عالجها ياكوبسون في كتابه بما يأتي:

1. وصف لوضع الدراسات اللسانية في نهاية القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى.

2. تحديد مفهوم الفونيم.

3. وصف نظرية النظام الصوتي.

4. تحليل بنية الفونيم ووضع نظرية السمات المتميزة.

5. إنجاز نظام فونولوجي للصوامت في اللغة الفرنسية.

6. تعديل المبدأين السوسيريين: مبدأ خطية الدال ومبدأ اعتباطية الإشارة اللسانية.

لقد استعرض ياكوبسون كل الأعمال التي عنيت بالبحث الفونولوجي على الرغم من انتشارها وتعددها، وقد لاحظ أن هذه الأعمال تفتقر إلى تحليل بنيوي للفونيم، ولهذا وقعت على عاتقه مهمة تحليل بنيوي للفونيم بعد أن نبذ الفكرة التي تتمثل في البحث عن تموضع الفونيم، ذلك أن محاولة اكتشاف ما يطابق الفونيم في أذهان المتكلمين هي محاولة تقع خارج حقل اللسانيات، كما حاول ياكوبسون أن يدحض فكرة اللساني آلفرد شمت في إنكار وجود الفونيم استناداً إلى حجج شبه نفسية تتمثل في أن الفونيم لا يؤدي وظيفة بصورة منعزلة وأن الكلمة هي أصغر عنصر لساني بقدر تعلق الأمر بالمتكلمين، ويثبت ياكوبسون ـ على العكس ـ وجود الفونيم بوصفه حزمة من السمات المتميزة، وإن الكلمة هي أصغر وحدة صوتية بالنسبة لشخص يعاني من نوع من أنواع الحبسة، ويمضي ياكوبسون كيما يدحض تمييز اللساني الروسي ليف سكيربا ـ تلميذ اللساني البولندي بادون دي كورتني ـ بين الفونيم بوصفه ظاهرة ذاتية ونفسية وبين الصوت بوصفه ظاهرة

خارجية موضوعية (وجلي تأثر سكيربا ـ هنا ـ بنزعة أستاذه بادون النفسانية)، وذلك من خلال الإشارة إلى الكلام الداخلي، أي الكلام الذي نوجهه إلى أنفسنا من دون إصدار أصوات، فكلمات الكلام الداخلي لا تتكون من أصوات صادرة بل من صور أكوستيكية وحركية.

وحينما قرر سوسير أن الفونيمات هي كيانات متقابلة ونسبية وسلبية، وإن النظام الفونولوجي للفونيمات هو الحقيقة الوحيدة التي يجب أن يعنى بها اللساني، وجد ياكوبسون أن في آراء سوسير أثراً لنفسانية مشابهة لنفسانية بادون دي كورتني، كما أنه وجد عند سوسير تراجعاً من العناية بالقيمة الوظيفة للأصوات إلى نقطة انطلاق علم الصوت الحركي في مرحلته الابتدائية، وفضلاً عن تراجع سوسير هذا، فإن ياكوبسون قد وجد تناقضات خطيرة عند سوسير في كتابه «محاضرات في اللسانيات العامة»، ويمكننا أن نشير إلى هذه التناقضات بذلك التطابق الذي أبداه سوسير بين النظام الصوتي phonology وفسلجة الأصوات، وبعد ذلك ينفي سوسير هذا التطابق ليؤكد أن الجانب الفسلجي للأصوات ليس مهماً بقدر أهمية التقابلات الفونيمية. وربما يكون هذا التناقض ناجماً ـ كما أشار ياكوبسون نفسه ـ عن التجميع الميكانيكي لمحاضرات سوسير، وقد عبّر ـ فيما بعد ـ جامعا المحاضرات تلميذاه ألبرت سيشهاي وشارل بالي عن أسفهما على هذا التجميع الميكانيكي. كذلك فإن القيم اللسانية للأصوات ـ حسب سوسير ـ لا تتأثر بالتغيرات الصوتية فتغيرات الأصوات تصادفية ومستترة ومخالفة لنظام اللغة. إلاّ أن ياكوبسون نظر إلى تغيرات الأصوات بصورة لا يمكن فهمها إلاّ في ضوء علاقتهما بالنظام الفونولوجي.

وقد رأى سوسير أن الفونيمات هي كيانات سلبية وتمييزية خالصة، غير أنه عمّم هذه السمة على الكيانات اللغوية ومن هذه الكيانات المقولات النحوية التي رأى أنها مقولات تقابلية. ويكشف ياكوبسون ـ هنا ـ عن خطأ سوسير هذا من خلال تقريره «إن المقولات النحوية كيانات نسبية وتحدد معانيها بوساطة دور التقابلات ضمن هذا النظام». إن علاقات التقابل تكون أكثر من الفونيمات المشتقة منها. ويعزو ياكوبسون هذه المشكلة إلى تصور خاطىء لمفهوم الفونيم بوصفه غير قابل للتجزئة، ويثبت ياكوبسون ـ على العكس ـ أن الفونيم قابل للتحليل إلى عناصر تمييزية تنتج علاقات تقابلية جديدة. وعبر تحليل بنية الفونيم انبثقت نظرية السمات المتميزة، وعبر هذه النظرية، بين ياكوبسون إمكانية تحليل الفونيمات إلى وحدات أصغر، وبهذا فقد دحض الفكرة القائلة بذرية الفونيمات. وحين أثبت ياكوبسون قابلية الفونيم على التحليل البنيوي بيّن أن السمة المتميزة والمورا mora (وحدة قياس الطول الصوتي) هما الوحدتان غير القابلتين للتحليل.

إن هذه القضايا وقضايا أخرى يناقشها ياكوبسون تعدّ ذات أهمية استثنائية للدراسات اللسانية، ولا نودّ أن نمضي في تبيان هذه القضايا بيد أنه لا بد من الإشارة إلى الصعوبات التي واجهتنا في ترجمة هذا الكتاب، وتتعلق جل هذه الصعوبات بالجهاز المصطلحي اللساني، فقد حاولنا أن نستفيد من بعض القواميس التي وضعت في حقل اللسانيات كما حاولنا في أحيان قليلة تعريب المصطلحات التي لم نعثر على ما يقابلها في اللغة العربية كما أننا حاولنا ـ في أحيان قليلة كذلك ـ أن نبدل الأمثلة التوضيحية التي يسوقها ياكوبسون بأمثلة عربية تؤدي الغرض نفسه، ونرجو ـ ختاماً ـ

أن نكون قد وفقنا في عملنا هذا خدمة لثقافتنا اللسانية بشكل خاص ولثقافتنا العربية عموماً.

«ونودّ في هذه المقدمة أن نشكر د. عناد غزوان الاستاذ في كلية الآداب ـ جامعة بغداد ورئيس جمعية المترجمين العراقيين الذي قوّم من الترجمة بخبرته الكبيرة وأسهم في فكّ مغاليق بعض المسائل الشائكة ومنحنا من جهده ووقته الشيء الكثير، فشكراً له ولخلقه الكريم ولطفه البالغ، كما ونشكر الاستاذ سعد الحسني الاستاذ في كلية الآداب ـ جامعة بغداد على روح التعاون التي أبداها لنا، إذ أسهم في مراجعة بعض النصوص وتوضيح بعض المسائل، فشكراً لتلك الروح المتعاونة وشكراً للأدب الجمّ الذي تحلّى به الاستاذ الحسني.

المترجمان

آذار 1993

توطئة

أسس العلماء الفرنسيون والبلجيكيون المدرسة الحرّة للدراسات المتقدمة في المنفىٰ في بداية عام 1942 في نيويورك. وسرعان ما عرضت منصب الاستاذية في اللسانيات العامة على رومان ياكوبسون الذي افتتح الفصل الدراسي الأول بست محاضرات «عن الصوت والمعنىٰ» بالإضافة إلى درس عن لسانيات فرديناند دي سوسير، وأتبعها ـ خلال السنة الدراسية 1942 ـ 1943 ـ بدرسين كرّسا ـ على التعاقب ـ لـ «التغيرات في اللغة» و «التشابه وصلة القرابة في اللغات»، فضلاً عن خمس عشرة محاضرة ألقاها خلال نصف السنة الدراسية عن «النظام الصوتي» phonology.

وقد أتبعت هذه الدروس بدروس ألقاها أساتذة المدرسة وهم: هنري غريغوري وجاك هادامارد وكلود ليفي شتراوس، وبدروس اللسانيين مثل: ج .ماتوسو كمارا وبول ل .كارفن وجارلس ف .هوكيت وهنري م .هونزفالد وتوماس أ .سيبيوك. وفي الوقت نفسه، أعطى رومان ياكوبسون درساً في «الشعر التشيكي من القرن التاسع وحتى القرن الخامس عشر» وذلك في معهد التاريخ والنظام الصوتي السلافي والشرقي الملحق بالمدرسة.

ولأن ياكوبسون لم يكن مستعداً لإلقاء محاضراته بالفرنسية، فقد أعد مسودة لـ «ست محاضرات في الصوت والمعنى» في

بادىء الأمر، ومن ثم استخدم هذه المسودة كأساس لعرض شفوي لا رسمي. وقد حرر نص هذا الكتاب عمانوئيل كلود جاكوارت وهو نسخة من مسودة ياكوبسون الأصلية بتحويرات قليلة.

المقدمة

بقلم: كلود ليفي شتراوس

إن كتاباً لرومان ياكوبسون ليس بحاجة إلى مقدمة. ولا أدعي أنني جدير بالشرف العظيم لكتابتها لولا أن ياكوبسون نفسه طلب إلي أن أسهم ـ هنا ـ في الإدلاء بشهادتي بوصفي مستمعاً من مستمعيه وبوصفي أحد أتباعه كذلك. إن هذه المحاضرات ـ التي يناهز عمرها الآن ثلث قرن من الزمان والتي قرر المؤلف أخيراً نشرها بعدما كان في نيته نشرها مراراً ـ هي مشروع كان يؤجل في كل مرة ليفسح المجال لمهمات أكثر أولوية، وقد كانت هذه المحاضرات التي سمعتها بوصفي أستاذاً في المدرسة الحرة للدراسات المتقدمة في نيويورك خلال تلك السنة 1942 ـ 1943 عندما بدأ كل منا يحضر محاضرات الآخر.

وعندما أعيد قراءة محاضرات ياكوبسون اليوم اكتشف مرة أخرى ذلك التحفيز الفكري الذي شعرت به قبل أربع وثلاثين سنة. وفي ذلك الوقت لم أكن أعرف أي شيء تقريباً عن اللسانيات ولم يكن اسم ياكوبسون مألوفاً لدي. غير أن الكسندر كويره Alexandre Koure هو الذي دلّني على دور ياكوبسون وهو الذي عرف أحدنا على الآخر كذلك. ولم أزل مدركاً ـ بشدة ـ للصعوبة التي واجهتها ـ نتيجة لعدم خبرتي ـ لمدة ثلاث سنين أو أربع في محاولة لإيجاد تنويت(*) notation مُرضٍ لتسجيل لغات

(*) تنويت: بمعنى وضع نظام لكتابة اللغة بالرموز، المترجم.

وسط البرازيل، فوعدت نفسي أن أحصل من ياكوبسون على الأوليات التي أفتقر إليها، وعلى الرغم من ذلك، فإن ما تلقّيته في الحقيقة ـ من تدريسه ـ كان شيئاً مختلفاً تماماً، وأكاد احتاج أن أضيف، إنه كان شيئاً أكثر أهمية إلى حد بعيد، وهو إلهام اللسانيات البينوية Structural Linguistics وكنتيجة لها تمكنت ـ فيما بعد ـ من بلورتها إلى مجموعة من رؤى وأفكار متماسكة ألهمني إياها التأمل في الورود البرية في مكان ما قرب حدود لكسمبورغ في مطلع شهر أيار سنة 1940. وقد أثارت في قراءة كتاب مارسيل غرانيت Marcel Granet «أصناف الزواج وعلاقات القربى في الصين القديمة»، المشاعر الغامضة التي هي مزيج من الحماس والسخط اللذين اثيرا فيّ في وقت ما في مونتبليه حيث أديت ـ ولبعض الوقت وللمرة الأخيرة في حياتي ـ وظيفة معلم فلسفة، كنتيجة ـ من جهة أولى ـ للمحاولة المزمع إيجادها هناك لربط مجموعة وقائع اعتباطية ظاهرياً في نظام، وكنتيجة ـ من جهة أخرى ـ للنتائج المعقدة وغير المتوقعة التي توصل إليها هذا الجهد.

وعلى العكس، فما كنت أتعلمه من اللسانيات البنيوية هو أنه بدلاً من فقدان المرء طريقه بين حشد من المصطلحات المختلفة، فإن الشيء المهم هو تأمل العلاقات الأبسط والأكثر معقولية التي تربط تلك المصطلحات أحدها بالآخر. لقد اكتشفت ـ باستماعي إلى ياكوبسون ـ أن أثنولوجيا Ethnology القرن التاسع عشر، أو حتى في بواكير هذا القرن ـ قد اكتفت ـ مثل لسانيات النحويين الجدد ـ باستبدال «قضايا السببية الصارمة بقضايا تعنى بالوسائل والغايات»، فهم اكتفوا، من دون أن يصفوا بصورة كافية ظاهرة

معينة، بالرجوع إلى أصولها، ولذلك وجد هذان الفرعان من المعرفة نفسيهما بمواجهة حشد مذهل من التنوعات، في حين أن التفسير يجب أن يهدف إلى اكتشاف «الثابت خلف كل هذا التنوع». ويمكن تطبيق ما قاله ياكوبسون في علم الصوت Phonetics، بصورة جيدة، على الأثنولوجيا بعد إجراء جميع التغييرات الضرورية.

حقاً إن دراسة المادة الصوتية للغة قد تمت بصورة شاملة، وإن مثل هذه الدراسات ـ ولا سيما خلال السنوات الخمسين الأخيرة الماضية. قد قدمت فيضاً من النتائج التوضيحية. بيد أن تلك الظواهر قيد الدرس بحثت ـ في الأعم الأغلب ـ بمعزل عن وظيفتها. وفي ظل هذه المعطيات كان من المستحيل تصنيف ـ أو حتى فهم ـ هذه الظواهر. وفيما يتعلق بأنظمة القرابة Kinship Systems التي كانت موضوع محاضراتي من عام 1942 ـ 1943، فإن الفضل يعود إلى أمثال فان فودين Van Wouden (الذي لم أكن على معرفة بعمله حتى ذلك الوقت) وغرانيت اللذين تجاوزا هذه المرحلة، بيد أنهما لم يحولا تركيز انتباههما عن الظواهر والنظر ـ بدلاً من ذلك ـ إلى العلاقات التي بينها. وفي غياب هذا المقترب، لم يكونا قادرين على أن يدركا ـ بصورة عقلية ـ الظاهرة، وبالتالي، أديا إلى التورط في المهمة اللامجدية للبحث عن أشياء خلف أشياء على أمل عقيم للوصول إلى شيء ما أكثر طواعية من المعطيات التجريبية التي عالجتها تحليلاتهما. إن ما يكتبه ياكوبسون ـ هنا ـ في الفردية الصوتية للفونيمات، يمكن أن يقال عن أية ظواهر سواء أكانت حقيقية أم خيالية، «إن الشيء المهم (...) هو أنه لا يمكن مطلقاً لكل كيفية صوتية مفردة لفونيم ما

أن تدرس بصورة منعزلة وأن تقوم بذاتها، فما هو مهم هو تقابلها التبادلي ضمن نظام ما...».

لقد كانت تلك الأفكار الخلاقة ـ التي ليس لتفكيري الخاص بإزائها شك معين والتي لا تتوفر حتى الآن على وضوح ولا على أدوات مفهومية ضرورية لتنظيمها على نحو لائق ـ هي الأكثر إقناعاً في عرض ياكوبسون لها، ذلك العرض الذي أنجزه بمهارة لا تضاهى فجعل منه المحاضر والمعلم المتألّق، حيث كنت محظوظاً بما فيه الكفاية لكي استمع إليه. ويتسم هذا النص بالبراعة التامة والقوة المنطقية في عرضه. فليست القيمة من وراء هذه الصفحات هي أنها تختبر (تلك الأفكار)، على الأقل، لكل أولئك الذين لم تسنح لهم فرصة سماع ياكوبسون، فرصة سماع ما كانت عليه محاضراته ودروسه التي ما زالت ـ كما كانت عليه ـ إلى الآن وهو في سنته الثمانين.

تطورت المناقشة في هذه المحاضرات التي قدمت بمقدرة خطابية هائلة وكذا في أية لغة اختارها ياكوبسون للتعبير عن نفسه «ومع ذلك يجب أن نفترض أنها ستكون أعظم لو قدمت بلغته الأصلية» بوضوح ودقة كافيين. ولم يطور ياكوبسون مناقشاته المجددة والصعبة في بعض الأحيان، بتفصيل تام من دون توضيحها بأمثلة مستقاة من النطاق الواسع للغات، وغالباً من الشعر والفنون التشكيلية الحديثة كذلك. إن إحالته المنهجية على المفكرين العظام ـ الرواقيين Stoics، والاسكولائيين Scholastic، وبلاغيي عصر النهضة، والنحويين الهنود وآخرين كثيرين ـ تظهر اهتمامه الجاد لموضعة هذه الأفكار الجديدة وفقاً لعلاقاتها الصوتية ولينقل لذهن سامعه معنى تواصلية التاريخ والفكر. وفيما يتصل

بياكوبسون، فإن نظام العرض يتبع ـ خطوة بعد خطوة ـ نظام الاكتشاف، وبذلك تنتج عن عرضه قوة درامية تشد سامعه، ومع وجود ثروة التأثير المسرحي في لحظة سياق النص بشكل كاسح وسريع من خلال قطع قصير، فإن العرض يخطو بسرعة نحو استنتاجاته التي تكون غير متوقعة أحياناً والتي تحمل القناعة دائماً، إن هذه المحاضرات الست ـ بعد أن تأخذ مكانها إلى جانب أعماله المعدّة دائماً للنشر ـ تمثل عينة لأسلوبه الشفهي الذي لم يفقد شيئاً من نكهته لأنه اتخذ شكلاً طباعياً. تعطي المحاضرة الأولى وصفاً لحالة اللسانيات في نهاية القرن التاسع عشر، إذ تجادل ضد آراء النحويين الجدد Neogrammarians الذين يذهبون إلى أن الصوت والمعنى ينتسبان إلى تنظيمات متميزة تماماً. وتعزو الفضل الحقيقي إلى نتائج البحث الصوتي، ولكنها تبين ـ بموجب التمييز بين علم الصوت الحركي Motor وعلم الصوت الاكوستيكي acoustic ـ أنه من المستحيل فصل الصوت عن المعنى، أو الوسائل اللغوية عن غاياتها.

فإذا كان الصوت والمعنى متلازمين، فما هي ـ إذن ـ آلية وحدتهما؟ يبين ياكوبسون في المحاضرة الثانية أن مفهوم الفونيم مكّننا من أن نحل هذا (اللغز) الواضح: فهو يحدد هذا المفهوم، ويقدم وصفاً لأصوله ويناقش تفسيراته المقترحة ابتداء. ولمواصلة المسلك نفسه إلى الأمام تقدم المحاضرة الثالثة نظرية النظام الصوتي Phonology مؤسسة على أولية العلاقات والنظام. ورفضت هذه المحاضرة التورط في نزاع حول طبيعة الفونيم، كونها مشكلة غير ضرورية وعقيمة، وبوساطة تحليل فعلي أثبتت المحاضرة خصوصية هذا الكيان اللغوي بالمقارنة مع المورفيم morpheme،

أي الكلمة والعبارة. إن الفونيم هو الكيان اللغوي الوحيد من دون مضمون مفهومي. وهو ليس ذا معنى بذاته، إنما هو أداة تساعد على التمييز بين المعاني.

بيد أن هذا أثار ـ مباشرة ـ مشكلتين، وتشكل هاتان المشكلتان مادة موضوع المحاضرة الرابعة. إن ما ينتج عن تعريف الفونيم بوصفه قيمة تمييزية في المقام الأول، هو أن الفونيمات لا تنجز وظيفتها بفضل تفردها الصوتي وإنما بفضل تقابلها التبادلي ضمن نظام معين. وعلى أية حال، ليس ثمة علاقة منطقية يمكن أن تكتشف بين الفونيمات المتقابلة أحدها مع الآخر، فحضور أحدها لا يستدعي ـ بالضرورة ـ الآخر. وفي المقام الثاني، إذا كانت علاقات التقابل بين الفونيمات تكون قيماً أساسية تمكن المعاني من التميز، فكيف يمكن لتلك العلاقات أن تكون أكثر بكثير من الفونيمات المشتقة منها؟ ويبين ياكوبسون أن كلا هاتين المفارقتين تنشآن عبر تصور غير صحيح، بحيث تكون الفونيمات ـ على وفق هذا التصور ـ بمثابة عناصر غير قابلة للتجزئة. وفي الحقيقة، إنه حالما تحلل هذه الفونيمات إلى عناصر تمييزية تصل إلى أنواع جديدة من العلاقات التي يكون لها ـ من جهة أولى ـ طبيعة التقابلات المنطقية، وتكون في كل اللغات ـ من جهة أخرى ـ أقل عدداً من الفونيمات الناتجة عن تأليفات مختلفة من تلك التقابلات.

وتوضح المحاضرة الخامسة تلك الأفكار النظرية بتقديم وصف وتحليل لنظام الصوامت Consonant في اللغة الفرنسية. وتمنح هذه المحاضرة ـ كذلك ـ فرصة لتعميق فكرة التنوع التأليفي، ولحل مشكلة عمل الفونيمات ـ بصورة إيجابية ـ على محورين، التزامن Simultaneity والتعاقب Succession.

نتجت هذه البرهنة ـ إلى حد ما ـ عن معالجة أصيلة لفكرة المورا mora التي ـ كما أتذكر ـ أَسَرَّتْ بوس Boas قبل وفاته تقريباً خلال عشاء في بيته كنت أنا وياكوبسون مدعوين إليه.

أما المحاضرة السادسة فقد اختصرت ولخصت مناقشة الدرس ككل. بيد أن نهايات ياكوبسون ليست مجرد تكرار مطلقاً. فهي تأخذ بالمستمع إلى ما بعد تلك النقطة التي ـ كما يعتقد هو ـ تَسمح له بالراحة عندها، وفي هذه الحالة أخذ ياكوبسون بهذا المستمع إلى ما بعد المبدأ السوسيري Saussurian عن اعتباطية الإشارة اللغوية Arbitrariness of the Linguistic sign تبدو الإشارة ـ بطبيعة الحال ـ اعتباطية عندما ينظر إليها من منظور التشابه، أي عندما نقارن دوال إشارة ما والمدلولات نفسها في لغات مختلفة، إلا أنها ـ كما بين بنفينيست Benveniste ـ لا تعود اعتباطية لكل لغة تدرس في ذاتها، عندما ينظر إليها من منظور التجاور Contiguity، ويعد هذا علاقة ضرورية بين الدال والمدلول. تكون العلاقة ـ في الحالة الأولى ـ داخلية، بينما تكون ـ في الحالة الثانية ـ خارجية، وهذا هو سبب بحث الذات المتكلمة لتعويض غياب الأول بالاستعانة بالآخر بمنح اللغة رمزية صوتية. كذلك أنجزت ـ مرة أخرى ـ الوحدة بين الصوت والمعنى، وهذه المرة على مستوى ذي أساس عضوي كما بين ياكوبسون ـ مستوى تجاهله علماء الصوت التقليديون، لا لأنهم ردوا الفعالية اللغوية إلى أساسها الفسلجي ـ انتقد هذا الرد في المحاضرة الأولى ـ بل لأنهم اقتنعوا ـ كما نستطيع أن نرى ـ بفهم سطحي جداً لهذا الجانب من اللغة.

أستطيع الآن ـ ومنذ سنوات كثيرة ـ أن أدرك ـ بوضوح أكبر

من أيّما وقت مضى ـ تلك الأطروحات في هذه المحاضرات التي أثّرت فيَّ كثيراً. وعلى أية حال، فقد بدا لي متناقضاً كثيرٌ من الأفكار عن الفونيم و «تحريم السفاح»، وقد كنت أصوغ التصور عن «تحريم السفاح» باستلهام الدور الذي نسبه اللغويون إلى مفهوم الفونيم. لقد بدت لي فكرة التحريم السفاحي ـ كما بدا الفونيم الذي هو وسيلة يتشكل بوساطتها المعنى على الرغم من خلوه من المعنى بذاته ـ رابطة تربط بين منطقتين عُدَّتا ـ إلى الآن ـ منفصلتين إحداهما عن الأخرى، وثمة ما يقابل تمفصل الصوت والمعنى على مستوى آخر هو تمفصل الطبيعة بالثقافة. وكما أن شكل الفونيم هو وسيلة كلية تماماً ـ في اللغات كلها والذي تأسس التواصل اللغوي به ـ فإن التحريم السفاحي ـ الذي يوجد بصورة كلية أيضاً إذا ما حددنا أنفسنا بصورته السلبية ـ يكون شكلاً أجوف ـ إلا أنه ضروري ـ إذا ما دخلت المجموعات البايولوجية في شبكة من التبادلات التي تستطيع بها تلك المجموعات أن تؤسس التواصل وتجعله ممكناً وضرورياً. وأخيراً، فإن معنى قواعد الزواج ـ التي لا يمكن أن تفهم إذا بحثت بصورة منعزلة ـ يمكن أن تظهر للعيان ـ فقط ـ بوصفها متقابلات تبادلية، وعلى الشاكلة ذاتها، فإن الطبيعة الحقة للفونيم لا تكمن في تفرده الصوتي، وإنما في العلاقات التقابلية والسلبية التي ترتبط الفونيمات بها أحدها بالآخر.

يقول ياكوبسون: «إن فضيلة سوسير العظيمة هي إفهامنا ـ بوضوح ـ (...) أن شيئاً ما عرضياً يؤدي دوراً بصورة لا واعية».

لا يمكن الشك في أن هذه المحاضرات تقدم ـ أيضاً ـ مساهمة مهمة للعلوم الإنسانية بتأكيد الدور المبذول في إنتاج اللغة

(وكل الأنظمة الرمزية أيضاً) بوساطة النشاط اللاواعي للذهن، وشريطة أن ندرك أن اللغة ـ مثل أية مؤسسة اجتماعية أخرى ـ تفترض مقدماً وظائف ذهنية تعمل على مستوى اللاوعي، ويمكن بهذا فقط أن نأمل ببلوغ ـ فيما وراء استمرارية الظواهر ـ لا استمرارية تلك «المبادىء» التي تنظم اللغة، والتي لا يدركها المتكلم أو المفكر بصورة واعية على نحو اعتيادي. ومع اكتشاف هذه المبادىء ـ وبصورة خاصة لا استمراريتها ـ وجدت اللسانيات والعلوم الإنسانية الأخرى الطريق مفتوحاً لها لتحرز تقدماً سريعاً.

إن هذه النظرة مهمة بسبب إبداء شكوك ـ في بعض الأحيان ـ فيما إذا كانت النظرية الفونولوجية تتضمن فعلاً ـ منذ بدايتها ولا سيما مع تروبتسكوي ـ تحوّلاً نحو البنى اللاواعية الضمنية والتحتية الأساسية. ومع ذلك، فعلى المرء أن ينظر ـ فقط ـ إلى نقد سكيربا Scerba، الذي ساقه ياكوبسون هنا ليبين أن هذا النقد يتفق مع تربتسكوي على النقاط كافة، الشيء الذي لا يدهش المرء مطلقاً عندما يتذكر أن هذه النقاط تتصل ـ بصورة محكمة ـ إحداها بالأخرى في فكريهما، حيث يكتب ياكوبسون: «إن سكيربا وبعض دارسي بادوين دي كورتني Baudouin de Courtenay احتكموا إلى الحدس اللغوي للمتكلم» لأنهم لم يفهموا «أن عناصر اللغة تبقى ـ عادة ـ دون عتبة تفكيرنا الواعي، وكما يقول الفلاسفة، فإن النشاط اللغوي يبدأ بالشروع من دون معرفة ذاتية» ويكتب تروبتسكوي في كتابه «مبادىء النظام الصوتي»:

«إن الفونيم فكرة تخص اللسانيات وليس علم النفس، ويجب أن ترفض أية إشارة إلى حدس لغوي ما في تحديد الفونيم». إن تفكيك الفونيم إلى سمات مميزة ـ أشار إليه تروبتسكوي بيد أنه

أنجز للمرة الأولى على يد ياكوبسون عام 1938 - سوف يخلق إمكانية موضوعية وغير غامضة تماماً لرفض أي اتكال على الحدس الذاتي للمتكلمين مرة وإلى الأبد. وتعد القيمة التمييزية لهذه السمات الحقيقة الأساسية، في حين أن إدراكنا الواعي التقريبي لهذه العناصر ليس أكثر من ظاهرة ثانوية.

لم يعد ياكوبسون - على الأرجح - موافقاً على الموقف الذي اتخذه بصدد جانب واحد فقط في هذه المحاضرات، كان قد اتخذه منذ أكثر من ثلاثين عاماً، إذ اعتقد في عام 1942 - 1943 وعلى نحو ملائم تماماً في ذلك الوقت «أن اللغة هي النظام الوحيد الذي يتكون من عناصر هي دوال إلا أنها - في الوقت نفسه - لا تدل على شيء». ومنذ حدثت ثورة في علم الأحياء biology باكتشاف الشفرة الوراثية - وهي ثورة لم تفشل نتائجها النظرية في التأثير على العلوم الإنسانية بصورة مثيرة - فهم ياكوبسون هذا الأمر على نحو مباشر: «حيث كان أول من أدرك ووضح درجة التشابه فوق الاعتيادية بين نظام المعلومات الوراثي ونظام المعلومات الكلامي»(*). وبعد أن عدد «كل الخصائص التي تشاكل بين الشفرة الوراثية (...) والنموذج المعماري الذي يبطن الشفرات الكلامية للغات الإنسانية كافة»(**) ذهب ياكوبسون خطوة أبعد وآثار التساؤل عما إذا كان بالإمكان تفسير «التشاكل Isomorphism بين هاتين الشفرتين المختلفتين (الوراثية والكلامية) بوساطة التقارب البسيط الناجم عن تشابه في الحاجات، أو عما إذا

(*) اقتباس شتراوس من كتاب ياكوبسون: «مقالات في اللسانيات العامة».

(**) المصدر نفسه.

كانت أسس البنى اللغوية الظاهرة ـ التي تأسست بصورة جوهرية على الاتصال الفردي ـ غير محتذية المبادىء البنيوية لهذا الأخير (الاتصال الفردي) على نحو مباشر»(*).

إن هذه مشكلة واسعة، وربما يطرح الشخص الذي يلم بجهود علماء الأحياء واللغويين إمكانية حل هذه المشكلة في يوم ما، ولكن، ألسنا الآن في موقف لعرض وحل مشكلة مستقرة في الطرف الآخر لسلسلة العمليات اللغوية، مشكلة من النوع نفسه على الرغم من دلالتها الأكثر بساطة بصورة لا نهائية؟

نحن نتذكر مشكلة العلاقات بين التحليل اللغوي وتحليل الأساطير. وتتضمن هذه المشكلة الجانب الآخر من اللغة، ذلك الذي يوجه نحو العالم والمجتمع بدلاً من أن يوجه نحو الكائن الحي، ونجد هنا المشكلة نفسها، مشكلة العلاقة بين اللغة ونظام آخر (حيث يكون ـ بطبيعة الحال ـ على مقربة من اللغة في هذه الحالة طالما أنه يستخدم اللغة ضرورة)، نظام يتكون ـ بطريقة مختلفة عن اللغة ـ من عناصر تنضم معاً لتكوين المعاني، والتي لا تدل في ذاتها على أي شيء إذا ما أخذت بصورة منعزلة.

وعلى العكس من منظور سوسير، يبين ياكوبسون ـ في المحاضرة الثالثة ـ أن الفونيمات تختلف عن الوحدات اللغوية الأخرى (الكلمات والمقولات النحوية) كونها تمتلك مجموعة خصائص غير موجودة معاً في أية وحدة أخرى. إن المقولات النحوية ـ بطبيعة الحال ـ هي كيانات متقابلة ونسبية على غرار

(*) المصدر نفسه.

الفونيمات، إلا أنها تختلف عنها في أنها ليست سلبية على الإطلاق، وبتعبير آخر، فإن قيمتها ليست تمييزية خالصة، فكل مقولة نحوية، تفهم في ذاتها، تحمل قيمة دلالية يمكن للذات المتكلمة إدراكها. يمكن الآن أن يثار السؤال عما إذا كانت خصائص الفونيمات كافة تعاود الظهور في تلك الكيانات التي سميناها (ميثيمات)(*) (mythemes): وهي العناصر التي ينشأ منها الخطاب الأسطوري، وهي كذلك ـ باستخدام صيغة يطبقها ياكوبسون على الفونيمات ـ «علامات تمييزية خالصة وبلا مضمون». ويجب أن نميز دائماً معنى أو معاني كلمة ما في اللغة من (الميثيم) الذي يمكن لهذه الكلمة أن تشير إليه كلياً أو جزئياً. فالشمس، في لغة الحياة اليومية، هي جسم سماوي يظهر في النهار، بيد أن الميثيم «شمس» ليس له في ذاته ولذاته ـ أي معنى، واعتماداً على أساطير معينة قيد الدرس، فإنها يمكن أن تنسق بوساطة تنوع كلي لمضامين فكرية مختلفة. وفي الحقيقة، فإنه ليس ثمة شخص ـ يبرز ـ بشكل عرضي ـ الميثيم «شمس» في أسطورة ما ـ يكون قادراً على أن يشير ـ مقدماً ـ إلى مضمونها وطبيعتها الخاصتين، أو إلى وظائفها الخاصة في تلك الأسطورة، ويمكن تعيين معناها من خلال علاقات التبادل والتقابل ـ فقط ـ التي تشترك فيها بالميثيمات الأخرى ضمن هذه الأسطورة وبتعبير دقيق، فإن المعنى لا ينتسب إلى أي ميثيم مفرد وإنما هو نتيجة لتأليفها.

نحنُ على وعي بالمخاطر التي تعترضنا في السعي لإظهار

(*) الميثيم: هو أصغر وحدة أسطورية. (المترجم).

التطابقات الشكلية بين الكيانات اللغوية وتلك التي نعتقد أنها تتكشف للضوء عبر تحليل الاساطير وبطبيعة الحال، فإن الأساطير تنتسب إلى اللغة، بيد أنها تكوّن ـ ضمن اللغة ـ نظاماً منفصلاً بسبب المبادىء التي تحكمها، وسيكون خطأ فادحاً ـ في أية حالة ـ أن نعتقد أننا نعدّ الميثيم من التنظيم نفسه للكلمة أو العبارة، لأن هذه الكلمات أو العبارات هي كيانات يمكن أن يميز معناها أو معانيها ولو ذهنياً فقط (لأن معنى كلمة ما يمكن أن يتغير تبعاً للسياق)، وإنه يمكن تسجيل هذه المعاني في معجم. فتكون وحدات الخطاب الأسطوري الأساسية ـ بطبيعة الحال ـ من كلمات وعبارات بيد أن هذه الكلمات والعبارات في هذا الاستخدام المحدد لها ـ ومن دون رغبة في دفع التناظر إلى حد بعيد جداً ـ هي لنظام الفونيم، بحيث أن هذه الوحدات على الرغم من خلوها من المعنى بذاتها ـ تجعل من الممكن توليد معان في نظام ما تكون فيه متقابلة، وهذه هي حصيلة هذه المتقابلات بالضبط.

يمكن تحديد العلاقات بين الأسطورة واللغة بالقول. إن العبارات في خطاب الأسطورة تعيد إنتاج بنية اللغة، ولأن هناك تحويلاً في التعشيق ـ فقط ـ يفصلها عن عملها العادي، وتؤدي العناصر الأساسية للأسطورة وظيفة كتلك التي في اللغة، إلا أنها (العناصر) تكون ـ منذ البداية ـ أكثر تعقيداً من حيث الطبيعة. ونتيجة لهذا التعقيد يصبح الخطاب الأسطوري ـ في نمط من التعبير ـ مستقلاً عن الاستخدام العادي للغة، وبهذا سيكون أي تطابق دقيق في النتائج الناجمة عن تأليف عناصر الأنظمة المختلفة تصادفياً فقط. وبمقابل تعبير لغوي سائد ـ أسئلة أو أوامر أو معلومات ـ يمكن أن

يفهمه كل عضو في ثقافة معينة أو في ثقافة أدنى، ما دام يعرف سياق التعبير، فإن الأسطورة لا تمثل مطلقاً ـ للذين يسمعونها ـ أي معنى مميز، فتُنشِيء الأسطورة شبكة يمكن أن تحدد بموجب القواعد التي تنتظمها فحسب، وفيما يتصل بأعضاء الثقافة التي تنتسب إليها هذه الأسطورة، فإن هذه الشبكة لا تمنحهم معنى معيناً عن الأسطورة ذاتها، بل عن أي شيء آخر، أي عن الصورة التي لديهم عن العالم وعن المجتمع وتاريخه الذي يكون لدى مجموعة الأعضاء معرفة دقيقة تقريباً عنه، وعن الطرق التي تمثل فيها تلك الأشياء إشكالية لهم. وإن هذه الحقائق المتنوعة تعجز عن أن تشكل وحدة متماسكة، وهي تتصادم إحداهما بالأخرى على الأرجح. إنّ قالب المعقولية الذي تُقدمُهُ الأسطورة يسمح لها بالارتباط في كل متماسك، ومن الجدير بالملاحظة في هذه المناسبة، إن هذا الدور الذي عزوناه إلى الأسطورة يحيل مباشرة على الدور الذي عزاه بودلير Boudelair إلى الموسيقى.

ألا نجد هنا أيضاً ـ وإن يكن على الطرف الآخر من الميزان ـ ظاهرة مُشابهة للرمزية الصوتية التي كرس لها ياكوبسون الكثير من محاضراته الست؟ وحتى إذا كانت مشتقة من (قوانين علم النفس العصبي للحس المتزامن) أو على نحو أدق، بسبب تلك القوانين، فإن هذه الرمزية ذاتها ليست الشيء نفسه بالضرورة لكل شخص. يتوفر الشعر على وسائل كثيرة للتغلب على التباين ـ الذي استنكره مالارميه Mallarmé ـ بين صوت الكلمتين الفرنسيتين ومعناهما: نهار Jour، ليل Nuit، ولكن إذا ما سُمح لي أن أقدم هنا شهادتي الشخصية الخاصة، فإنني اقر بأنني لم أتبين مطلقاً هذا التباين في حد ذاته، وإنما جعلني أتصور ـ فقط ـ هاتين المدتين (ليل، نهار)

بطرق مختلفة. فالنهار ـ بالنسبة لي ـ هو شيء ذو دوام (بقاء، ثبات)، والليل هو شيء منتج أو محدث كما في التعبير (الليل يتلاشى The night falls) فالنهار يدل على حالة، ويدل الليل على حادثة. وبدلاً من إدراك تناقض بين المدلولات والتفصيلات الصوتية لدوالها الخاصة، فأنا أعدُّ المدلولات ـ بصورة لا واعية ـ مختلفة من حيث الطبيعة عن أي شيء آخر.

إننا نواجه عند طرفي اللغة هذا الخلاء الذي تكلم عليه ياكوبسون، حيث استدعت محتويات معينة لملئه. وعلى أية حال، فإن العلاقات التي تحضر وتغيب على التعاقب ومن طرف لآخر، تكون معكوسة، وتكون علاقة التجاور ـ على المستوى الأدنى للغة ـ حاضرة، في حين تكون علاقة التشابه مفقودة، وبالمقابل وعلى المستوى الذي يمكن أن يسمىٰ بمستوى الثبات المفرط (لأن هناك بيّنات لخصائص نظام جديد) حيث تطوع الأسطورة اللغة لأغراضها الخاصة، فتكون علاقة التشابه حاضرة ـ وبخلاف الكلمات، تشابه أساطير الشعوب المختلفة إحداها الأخرى ـ في حين تختفي علاقة التجاور لأنه ليس ثمة علاقة ضرورية ـ كما رأينا ـ بين الأساطير بوصفها دوالاً والمدلولات المحددة التي يمكن أن تنطبق عليها.

ومع ذلك، فإن تلك العلاقات يمكن أن تكمل ـ في حالة أو في أخرى ـ بطريقة ليست محتومة ولا محددة مقدماً. ويمكن التعبير عن الرمزية الصوتية عند المستوى الأدنى حيث تكون اللغة تحت تحكم قوانين علم النفس العصبي التي تمثل نماذج النشاط المخّي التي يوجد بينها تماثل معين، ويمكن أن نرى مظهر الرمزية الدلالية هذه المرة عند المستوى الأعلى، في المنطقة التي فيها

للأسطورة لغة متعالية حيث تمسك بالواقع الخارجي. وحينما تكون هاتان الرمزيتان على طرفين متقابلين للميزان الذي تترتب من خلاله الوظائف اللغوية، فإنهما (الرمزيتين) ـ إحداهما صوتية والأخرى دلالية ـ تبرزان تماثلاً واضحاً. فتعكس كل منهما ضرورات ذهنية من النوع نفسه، وتوجهان ـ في الحالة الأولى ـ نحو الجسد، ونحو المجتمع والعالم في الحالة الأخرى.

ربما لم يكتشف ياكوبسون أن هذه الامتدادات المحتملة لتفكيره النظري ممكنة القبول، بيد أنها ـ على أية حال ـ مقياس لاتساع المنطقة التي يكشفها ياكوبسون للبحث، ولخصب المبادىء التي نستطيع ـ من الآن فصاعداً ـ توجيه هذا البحث بفضلها. وعلى الرغم من أن هذه المحاضرات ترقى إلى سنوات كثيرة سابقة، فإنها أكثر من مجرد توضيح لحالة العلم في لحظة معينة من تاريخه. فهي اليوم ـ كما في الأمس ـ تعيد إلى الحياة مغامرة عظيمة للذهن، حيث لم يكف نتاج ياكوبسون حولها عن الظهور في عمله الخاص، الذي ما زال يخطو إلى الأمام، بين كل أولئك ـ سواء أكانوا لغويين أم متخصصين في فروع أخرى ـ الذين وضح لهم ياكوبسون الطريق والذين ما زال ياكوبسون مستمراً في إلهامهم.

كلود ليفي شتراوس

إنني متأكد من أنك متآلف مع القصيدة المشهورة «الغراب» The Raven لادغار ألن بو Edgar Allan Poe، ومع لازمتها الكئيبة «أبداً nevermore» أن هذه اللازمة هي الكلمة الوحيدة التي يقولها الزائر المشؤوم، ويؤكد الشاعر أن «ما تنطقه هو مضمونها فحسب» إن هذه اللفظة، التي لا تساوي أكثر من أصوات قليلة، غنية ـ مع ذلك ـ في مضمونها الدلالي. إنها تعلن نفياً، نفياً للمستقبل، نفياً وإلى الأبد. تتألف هذه اللازمة النبوئية من سبعة أصوات ـ سبعة لأن بو يُصِرّ على تضمين الصوت الأخير (r) الذي هو كما يقول بو:

«الصامت Consonant» الأكثر قابلية على التكرار». إنها تستطيع أن تبرز لنا المستقبل أو حتى الأبدية. مع ذلك، بينما تكون غنية فيما تكشف عنه، فإنها تكون أغنى فيما تخفيه، في وفرة إيحاءاتها الحقيقية. وفي هذه الإيحاءات الخاصة التي يبيّنها سياق نطقها أو الموقف السردي narrative الكلّي. إنها تحمل ـ بمعزل عن سياقها الخاص ـ مدىً لا محدداً من المعاني المتضمنة. ويخبرنا بو: ـ «ها أنا أعكف على وصل خاطر إلى خاطر، مفكراً في الطائر المشؤوم، طائر العصور الخالية/ مفكراً في «ذلك المتجهم، الفظ، المروّع، الكالح، طائر العصور الخالية المشؤوم/ فيما عناه بنعيقه «أبداً»/ وبقيت مستغرقاً في الظن (...) وازددت استغراقاً في التهكن...».

وإذا أخذنا سياق المحاورة بنظر الاعتبار، فإن اللازمة تنقل سلسلة من المعاني المختلفة: ـ

أنت لن تنساها، أنت لن تستردّ صفاء ذهنك، أنت لن تحتضنها مرّة أخرى، وأنا لن أتركك.

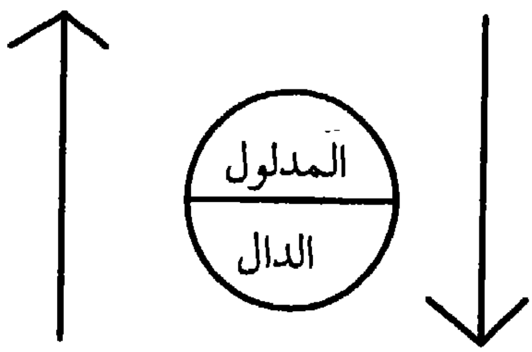
وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الكلمة نفسها يمكن أن تؤدي وظيفة بوصفها اسماً، الاسم الرمزي الذي منحه الشاعر لزائره الليلي.

إن قيمة هذا التعبير ـ مع ذلك ـ لا تؤخذ بنظر الاعتبار إجمالاً ـ حسب قيمتها الدلالية الخالصة، والمحددة بشكل ضيق، أي معناه العام زائداً معانيه السياقية الطارئة. ويخبرنا بو نفسه أنها كانت الخاصية الكامنة التي توحي فيها أصواتها بمعانيها (تسمية محاكاتية onomatopoeic) لأصوات الكلمة «أبداً» التي أوحت له صلتها بنعيق الغراب، بل إنها كانت إلهاماً للقصيدة إجمالاً، وإن لم يكن ـ كذلك ـ لدى الشاعر رغبة في أن يضعف رتابة اللازمة، وإطراد نسقها، وبينما يوردها مراراً بالطريقة نفسها (قال الغراب: أبداً nevermore فإنها تحقق ـ على الرغم من ذلك ـ تبايناً في أنواعها الصوتية، مثل ترخيم modulation النقمة، والنبر stress، والإيقاع cadence، والنطق المفصل للأصوات ومجموعاتها، ومثل تلك التباينات تسمح للقيمة العاطفية للكلمة أن تكون متنوعة كمياً وكيفياً في أنواع الطرائق كلها.

إن تفوّه utterance لازمة بو يتضمن عدداً قليلاً جداً فقط من التغيرات النطقية، أو كيما ننظر إلى هذه الكلمة من وجهة نظر متخصص أكوستيكي acoustic بدلاً من أن ننظر إليها عبر الجانب الحركي motor للكلام، فإن عدداً قليلاً من الحركات الاهتزازية

التي تكون ضرورية للكلمة لكي تكون مسموعة. وباختصار، فإن الحاجة قائمة لوسائل صوتية دنيا فقط لكي نعبر ونتواصل مع ثروة المضمون المفهومي والعاطفي والجمالي. ونكون ـ هنا ـ بمواجهة مباشرة مع لغز الصورة المتجسدة في المادة الصوتية، لغز الكلمة، لغز الرمز اللغوي، لغز العقل Logos، لغز يتطلب توضيحاً.

نحن نعرف ـ بطبيعة الحال ومنذ مدة طويلة ـ أن الكلمة ـ كأية إشارة لفظية ـ هي وحدة مكونة من عنصرين. إن للإشارة جانبين: الصوت، أو الجانب المادي من جهة أولى، والمعنى أو الجانب المفهومي من جهة ثانية. إن كل كلمة، أو كل إشارة لفظية بصورة أكثر عمومية، هي تأليف Combination من الصوت والمعنى أو لنقل بطريقة أخرى، تأليف من الدال Signifier والمدلول Signified تأليف يمثله المخطط التالي:



ولكن، بينما يكون هناك تأليف واضح على نحو تام، فإن بنيته تبقى مفهومة على نحو ضيق جداً. ويمكن أن تؤدي متتالية الأصوات وظيفتها بوصفها حمّالة للمعنى، ولكن كيف تنجز الأصوات هذه الوظيفة على نحو دقيق؟

وما هي العلاقة ـ حقيقة ـ بين الصوت والمعنى ضمن كلمة ما أو ضمن اللغة بشكل عام؟ وفي النهاية يوصلنا هذا إلى مشكلة

تعيين العناصر الصوتية الأساسية، أو الوحدات الصغرى الحاملة للقيمة الدالة، أو لنقل هذا بصورة مجازية، إنها مسألة تعيين كمّات quanta اللغة. وعلى الرغم من أهميتها الجوهرية لعلم اللغة، إلاّ أن مجموعة المشكلات هذه أخضعت حديثاً فقط إلى البحث المنهجي والشامل.

سيكون من الخطأ ـ بالتأكيد ـ تجاهل الاستكناهات اللامعة المتعلقة بدور الأصوات في اللغة، التي يمكن أن توجد (الاستكناهات) منتشرة خلال عمل مفكري العصور القديمة السابقة على العصور الوسطى وخلال العصور الوسطى، ومن أمثلتهم توما الاكويني Thomas Aquinas، الذي كان الفيلسوف الأعمق تفكيراً من بين فلاسفة اللغة، وسيكون من الخطأ ـ على حد سواء ـ تجاهل الملاحظات الدقيقة للنحاة الشرقيين القدماء وقبلهم النحاة الهنود. ولكن علمنا كرّس نفسه ـ حقيقة وبفعالية ـ للدراسة المفصلة للأصوات اللغوية في القرنين الأخيرين فقط.

في بادىء الأمر، استمدت هذه المساهمة في الأصوات اللغوية من الموضوعات التطبيقية بصورة أساسية، مثل موضوعات التقنية الغنائية وتعليم الأصم والأبكم الكلام، أو أيّ نطق Phonation آخر كان قد درسه الفيزيائيون بوصفة مشكلة معقدة في علم الفسلجة Physiology البشري. بيد أن اللسانيات، خلال القرن التاسع عشر حيث أحرزت تقدماً، كانت ذلك العلم الذي اضطلع ـ تدريجياً ـ في البحث في أصوات اللغة، البحث الذي سمّي علم الصوت Phonetics. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبح الشكل الأكثر بساطة للتجريبية الحسية Sensualist empiricism المركزة ـ مباشرة وعلى وجه الحصر ـ على الإحساسات

sensations، مهيمناً على اللسانيات. وكما يتوقع المرء، فإن الجانب المفهومي للغة، أو جانبها الدال، أو عالم المعاني، بقي مهملاً وغامضاً بسبب جانبها الحسّي القابل للإدراك حسّياً، وبسبب الجانب الجوهري والمادي للصوت.

وبينما أحرز علم الصوت تقدماً سريعاً حتى احتلّ المكان المركزي في الدراسة العلمية للغة، بقي علم الدلالة Semantics، أو دراسة المعاني، غير متطور. إن تفكير مدرسة النحويين الجدد الذي كان الاتجاه العام في التفكير والأكثر تميزاً وأرثوذكسية في اللسانيات في ذلك الوقت، وكانت (مدرسة النحويين الجدد) هي المهيمنة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى، كانت تقصي ـ على نحو صارم ـ من اللسانيات كل مشكلات الغائية Teleology. لقد بحثوا عن أصل الظواهر اللسانية، ولكنهم رفضوا ـ بعناد ـ أن يعرفوا أنها الهدف المباشر.

لقد درسوا اللغة لكنهم لم يتوقفوا متسائلين عن الكيفية التي تؤدي بها اللغة وظائفها لكي تفي بالضرورات الثقافية. وعندما سئل أحد النحويين الجدد الأكثر تميزاً عن مضمون المخطوطة الليتوانية Lithuanian التي كان يدرسها باجتهاد، استطاع ـ آخر الأمر ـ أن يجيب بارتباك: «إنني لم ألاحظ أيّ شيء فيما يتعلق بالمضمون». وفي هذا الوقت بحثوا في الأشكال Forms بمعزل عن وظائفها وقد كان الشيء الأكثر أهمية والأكثر نمطية للمدرسة التي نحن بصددها هو الطريقة التي نظرت بها إلى الأصوات اللغوية، ولقد كانت نظرتهم، على وفق روح العصر، نظرة تجريبية وطبيعية.

إن الأصوات اللغوية ـ في الحقيقة ـ دوال طرحت جانباً بتعمد، لأن هؤلاء اللغويين لم يكونوا يعنون ـ مطلقاً ـ بالوظيفة اللغوية

للأصوات، بل كانوا يعنون بالأصوات في حد ذاتها فقط، «بلحمها ودمها» من دون الأخذ بنظر الاعتبار الدور الذي تلعبه في اللغة.

لقد تحددت الأصوات اللغوية ظواهر فيزيائية خارجية ذات جانبين: الجانب الحركي motor والجانب الاكوستيكي acoustic.

ما هو الهدف المباشر من الفعل النطقي؟

هل هو الظاهرة الاكوستيكية أم هو الظاهرة الحركية نفسها؟

إنه ـ بوضوح ـ الظاهرة الاكوستيكية التي يهدف المتكلم إلى إنتاجها، وهي فقط التي يمكن أن يحصل عليها المصغي مباشرة وبسهولة. ومتى ما أتكلم فإنها تكون مسموعة. وإذن، فيما يتعلق بجانبي الصوت يكون الجانب الاكوستيكي ذا دلالة بينذاتيه intersubjective واجتماعية، في حين تكون الظواهر الحركية، أو بتعبير آخر، فعاليات الجهاز النطقي، هي مجرد متطلب فسلجي للظواهر الاكوستيكية.

ومع ذلك، فإن علم الصوت في حقبة النحويين الجدد يكرّس نفسه ـ في المقام الأول ـ بنطق الصوت، وليس بجانبه الاكوستيكي. وبتعبير آخر أكثر دقة، فإنه لم يكرّس نفسه للصوت ذاته، بل لإنتاجه الذي كان بؤرة القصد. وقد شكل هذا أساساً لوصف الأصوات وتصنيفها. وربما يبدو لنا أن هذا المنظور ناقص أو حتى خاطأ، ولكنه ليس غريباً في سياق اتجاه النحويين الجدد. وطبقاً لهذا الاتجاه، ولكل الآخرين الذين كانوا مؤثرين في تلك الحقبة، فإن المنظور النشوئي كان المنظور الوحيد الذي يعدّ مقبولاً. لقد اختاروا أن يبحثوا في شروط نشوء الموضوع وليس الموضوع نفسه. وبدلاً من وصف الظاهرة، كانوا يعودون إلى

أصولها. وهكذا استبدلت دراسة الأصوات اللغوية بعلم الصوت التاريخي، أي ببحث نماذجها الأصلية في الأشكال المبكرة للغة ما، في حين كان الاتجاه المعروف بعلم الصوت السكوني static يتخلى ـ تقريباً ـ عن رصد الجهاز الصوتي ووظيفته. وقد كان هذا الفرع الدراسي (علم الصوت السكوني) مندمجاً في اللسانيات على الرغم من السمة المتغايرة الخواص بوضوح لكلا الحقلين. وقد حاول اللغويون أن ينهضوا بالدور الصغير لعلم الفسلجة مع النتائج التي يوضحها جيداً المثال النموذجي التالي:

يستشهد ادوارد و .سكربتشر Edward W. Scripture عالم الأصوات المشهور والذي يعدّ كذلك فيزيائياً ـ بسخرية بالوصف الشائع للنطق الحلقي الخاص الذي ـ وهذا الوصف صحيح ـ يؤدي حتماً إلى خنق مميت للمتكلم. وحتى إذا لم نعدّ هذا خطأً فيمكننا أن نتساءل عن النتائج التي سوف توصلنا إليها دراسة الأصوات اللغوية من وجهة نظرهم الحركية.

وحتى لو حاول اللغويون ـ بادىء ذي بدء ـ أن يدرسوا الأصوات بأسلوب طبيعي naturalistic تماماً، ويطرحوا ـ بتشكيك ـ مشكلة الوظائف التي تنجزها في لغة ما، فإنهم ـ في الحقيقة ـ وظفوا ـ بصورة لا واعية ـ المعايير اللغوية إلى حد بعيد في تصنيفاتهم الأصوات، ولا سيما في تمييزهم الأصوات في سلسلة الكلام.

إن هذا الاستيراد المحظور كان مميزاً بوساطة حقيقة هي أن اللغويين ـ وعلماء النفس أيضاً ـ كانوا حتى الآن غير متآلفين فعلاً مع دور اللاوعي unconscious، ولا سيما مع أهميته الكبيرة في العمليات اللغوية كلها، ولكن، كما أن دراسة الأفعال النطقية

كانت مفيدة، وكما أن استعمال الوسائل الخاصة أتت لتعيد الثقة إلى التجربة الذاتية الخالصة، كانت النظرة إلى الرابطة اللغوية للظواهر الفسلجية مفقودة أكثر فأكثر.

وفي نهاية القرن (أي القرن التاسع عشر) بدأ علم الصوت الآلي Instrumental «أو كما كان يسمى عادة ـ ولكن على نحو أقل دقة ـ علم الصوت التجريبي» يحقق تقدماً سريعاً. ومع مساعدة الوسائل المتعددة والمفيدة أكثر فأكثر، كانت الدقة اللافتة للنظر منجزة في دراسة جميع العناصر المتضمنة للنطق الفمي buccal وفي قياس الزفير expiration. وقد فتح العهد الجديد في البحث الفسلجي بالتصوير الفوتوغرافي لأشعة أكس X-ray. إن أشعة أكس ـ المستخدمة بمصاحبة الشريط الصوتي ـ كشفت وظيفة الجهاز الصوتي بجميع تفصيلاته، وقد كشفت أشعة أكس كل الإنتاج الصوتي، والفعل النطقي التام الذي كان مكشوفاً ويمكن أن يشاهد فعلياً في أثناء حدوثه. وعندما أصبح هذا المنهج متاحاً لعلماء الأصوات تطبيقاً وتقنيةً، أصبح عدد كبير من الوسائل الصوتية السابقة زائداً على الحاجة.

لقد كان التصوير الإشعاعي radiography ـ قبل كل شيء ـ هو الذي كشف الدور المحوري للأجزاء اللاحقة للجهاز الصوتي، الأجزاء التي هي أكثر اختفاء والتي ـ حتى ذلك الوقت ـ من المتعذر أن تحصل عليها المناهج المتيسرة لعلم الصوت التجريبي.

وقبل وصول التصوير الإشعاعي، كان هناك ـ على سبيل المثال ـ نزر يسير جداً من المعرفة الصحيحة للوظيفة في عملية الفعل النطقي للعظم اللامي hyoid bone، ولسان المزمار epiglottis، والبلعوم pharynx، والحنك الرخو Soft palate.

إن أهمية هذه الأجزاء ـ ولا سيما البلعوم ـ كان مشكوكاً فيها، بل لم يكن أي شيء معروفاً عنها بالتفصيل. وتَذَكَّر أن البلعوم على مفترق طرق من حيث يبدأ، من القمة، بممرّ لتجويف الفم وممرّ لتجويف الأنف، وإلى الأسفل، الممر للحنجرة Larynx. ويقوم الطّبق Velum بفتح أو غلق كلا هذين الممرين العلويين، في حين يقوم لسان المزمار بفتح أو غلق الممرّ السفلي للحنجرة.

لقد مضت دزينة قليلة من السنوات حيث استطاع المرء أن يقرأ عن موضوع البلعوم في الكتاب المدرسي لـ : لودفيج سوتيرلين Ludwig Sutterlin اللغوي وعالم الأصوات المشهور: «يبدو البلعوم مهماً جداً في إنتاج الصوت، حيث يمكن أن يكون ضيقاً ومتسعاً، بيد أنه في الوقت الحاضر، ليس ثمة شيء أكثر تحديداً يكون معروفاً وبيقين حول الموضوع» / Dielehre vonder Lautbildung .Leipzig, 1908

وكحصيلة لعمل علماء الأصوات التشيك والفنلنديين الذين استخدموا التصوير الإشعاعي، نحن نفهم الآن ـ بصورة وافية كثيراً ـ وظيفة البلعوم في التصويت Phonation، ونستطيع أن نقرر أن الدور الصوتي لهذا العضو ليس أقل أهمية من الشفتين ـ مثلاً ـ اللتين تمثلان تناظراً وظيفياً معه في بعض الطرائق. ويمكن أن نرى من هذه البحوث الأكثر معاصرة أنه ما دام البحث الفسلجي للأصوات لا يدرك وظيفة البلعوم ولا وظيفة أجزائه المتجاورة، فالاحتمال الوحيد هو الوصول إلى وصف غير منظم ولا مرض له. إن التصنيف الفسلجي للأصوات الذي يأخذ بنظر الاعتبار وبدقة الدرجات المتنوعة لفتح الفم ولكنه لا يعير أهمية للدرجات المتنوعة لفتح البلعوم يمكن أن يوقعنا في الخطأ. وإذا ركز علماء

الأصوات على وظيفة الشفتين ولم يركزوا على وظيفة البلعوم، فلا يعني هذا أن وظيفة الشفتين أكثر أهمية. وإذا كانت فسلجة إنتاج الصوت ترفض أن تعتمد على فروع الدراسة الأخرى، فلن تكون لدينا طريقة لتأسيس الأهمية النسبية للأعضاء المختلفة والمساهمة في إنتاج الصوت.

وإذا أخذ علماء الأصوات ـ في تصنيفهم الأصوات اللغوية ـ العنصر الشفوي Labial بنظر الاعتبار، ولم يأخذوا العنصر البلعومي كذلك، كان هذا بسبب أن العنصر الشفوي أكثر سهولة للملاحظة من العنصر البلعومي.

وعندما وسّع حقل البحث وأصبح فرع الدراسة دقيقاً أكثر فأكثر، فكّك البحث المستقل للتصويت الأصوات التي حلّلت إلى وفرة مربكة من التفصيلات من دون وجود إمكانية الإجابة على السؤال الجوهري، أي القيمة التي تعزوها اللغة لكل من هذه التفصيلات التي لا تحصى. ويكشف لنا علم الصوت الحركي الوفرة المذهلة للاختلافات في تحليلها الأصوات المختلفة للغة أو في تحليلها بضع لغات معينة، لكنها لا تملك معياراً لتمييز الوظائف ودرجات الدلالة النسبية لكل هذه الاختلافات الملاحظة، وهكذا، فإنها لا تملك طريقة للكشف عن الثوابت بين كل هذا التنوع.

والآن، فإن تعيين هوية الأصوات المفردة بوساطة ملاحظة الصوت، إنما هو طريقة زائفة في العمل. وعلى مستوى أكبر فإن علم الصوت يتعلق ـ على وجه الحصر بفعل التصويت، أي بإنتاج الأصوات بوساطة الأعضاء المختلفة، إنه ليس في الوضع الملائم لينجز هذا، مثلما وضعها تماماً فرديناند دي سوسير Ferdinand de

Saussure في كتابه «محاضرات في اللسانيات العامة» المؤلف ما بين سنة 1906 وسنة 1911 والذي أعدّه للنشر بعد وفاته سنة 1913 تلميذاه شارل بالي Charles Bally وألبرت سيشهاي Albert Sechehaye وطبع سنة 1916* قال اللغوي العظيم ببصيرة.

«حتى إذا استطعنا أن نسجّل على شريط سينمائي كل حركات الفم والحنجرة في إنتاجهما سلسلة من الأصوات، فمع ذلك سوف يكون من المستحيل أن نكشف التقسيمات الأصغر في هذه المتتالية من الحركات المنطوقة، ولن نعرف أين بدأ هذا الصوت وأين انتهى الآخر. ومن دون إدراك اكوستيكي كيف يمكن أن نجزم ـ مثلاً ـ أن في (fal) هناك ثلاث وحدات وليس اثنتين أو أربعة؟».

تخيّل سوسير أن سماع سلسلة الكلام سوف يمكننا من أن ندرك مباشرة، سواء الصوت الذي قد تغيّر أم الصوت الذي بقي نفسه. ولكن البحوث اللاحقة قد وضّحت أنه ليست الظاهرة الاكوستيكية في ذاتها هي التي تمكننا من أن نقسّم سلسلة الكلام إلى عناصر متميزة، وإنما القيمة اللغوية للظاهرة هي التي تستطيع أن تحقق هذا فحسب. إن فضيلة سوسير الكبيرة هي إفهامنا ـ بوضوح ـ أن في دراسة الفعل النطقي ـ حين نثير مسألة الوحدات الصوتية ومسألة تمييز الأصوات في السلسلة الكلامية ـ شيئاً ما عرضياً يؤدي دوراً بصورة لا واعية. وبعد عشرين سنة من وفاة سوسير، صنع الشريط السينمائي الذي رغب سوسير في أن يراه.

---

* طبع بالانجليزية ـ محاضرات في اللسانيات العامة ـ ترجمة ويد باسكن Wade Baskinلندن ـ 1960.

فـقـد صـنـع عـالـم الأصـوات الألمانـي بـول مـينزرات Paul Menzerath شريطاً صوتياً بأشعة أكس لأعمال الجهاز الصوتي، ويثبت هذا الشريط نبوءات سوسير بصورة كاملة. وعبر هذا الشريط والنتائج المتأخرة لعلم الصوت التجريبي أثبت مينزرات وزميله البرتغالي أرماندو لاسيردا Armando Lacerda أن فعل الكلام هو حركة مستمرة وغير متقاطعة Koartikulation Steuerung und Lautabgrenzung 1933 في حين ميز الاتجاه التقليدي بين الأصوات الموضعية التي تبقى ثابتة، والأصوات الانتقالية التي تفتقر إلى هذا الثبات، والتي تحدث بالانتقال من موضع إلى آخر، لقد بيّن عالماً الأصوات هذان أن كل الأصوات هي ـ في الحقيقة ـ انتقالية. وفيما يتعلق بسلسلة الكلام، فقد توصلا إلى نتيجة ذات مفارقة أيضاً. فمن وجهة نظر نطقية تماماً، ليس هناك تتابع succession للأصوات. وبدلاً من أن تتابع الأصوات أحدها الآخر، فإنها تتداخل، والصوت الذي يدرك اكوستيكياً عندما يأتي بعد صوت آخر، يمكن أن يكون منطوقاً ـ في وقت واحد ـ مع الأخير أو حتى في الجزء الذي قبله. وعلى أية حال، فإن فائدة دراسة الأصوات اللغوية وأهميتها في الجانب الحركي الخالص ربما تكون الشيء الأهم الذي يبيّن لنا أن هذه الدراسة ليست أكثر من أداة مساعدة للسانيات، وإننا يجب أن نبحث ـ في مكان آخر ـ عن المبادىء التي تنظم المادة الصوتية للغة. وحتى لو أنهما ركّزا على الجانب الحركي للغة، فقد كان علماء الأصوات غير قادرين ـ على الرغم من ذلك ـ على تجاهل الحقيقة الواضحة تماماً والتي هي تحصيل حاصل في أن الصوت بحدّ ذاته ـ هو ظاهرة اكوستيكية ولكنهم اعتقدوا بأنّ البحث في

إنتاج الصوت، فضلاً عن البحث في الصوت ذاته، أعطى عالم الأصوات معادلاً حركياً للظاهرة الاكوستيكية معادلاً أكثير تيسّراً، أكثر تنويراً، وينفتح على كثير من المناهج المفيدة في التحليل. لقد وضع هذه الفكرة الناضجة مبكراً بيير روسيلوت Pierre Rousselot. وقد افترضوا أن هناك تطابقاً متبادلاً بين الجانبين وأن لتصنيف الظواهر الحركية معادلاً دقيقاً في تصنيف الظواهر الاكوستيكية. وهكذا يحتاج المرء لأن ينشيء الأول، طالما أن الأخير ينتج عنه آلياً.

والآن فإن هذه النظرة، التي وضعت في وقت مبكر والتي أعيد وضعها بشكل صحيح في الوقت الحاضر والتي لها تطبيقات عديدة في علم اللسانيات، قد فندتها وعارضتها الحقائق تماماً. وكانت المناقشات التي وضعت ضد هذا الموقف قد وضعت منذ عهد بعيد، حتى قبل الكتيبات الأولى حول علم الصوت.

ويمكن أن نشير ـ في المقام الأول ـ إلى الكتاب الفرنسي، المؤرخ في عام 1630 والذي سمّي بـ : Aglossostomographie ou description d'une bouche Sans Langue qu'elle parle et fait naturellement toutes ses autres fonctions.

(الأغلوسوستوموغرافية، أو وصف فم بلا لسان حيث يتكلم ويؤدي ـ طبيعياً ـ كل وظائفه الأخرى).

وفي عام 1718 نشر يوسين Jussien في مذكرات أكاديمية العلوم الملكية بحثاً سمي: «عن البنت التي ليس لها لسان sur la fille sans langue» إن كلا العملين اشتمل على وصف تفصيلي للناس الذين ـ على الرغم من أن لهم ألسنة بدائية فحسب ـ كانوا قادرين على تلفظ معرض للخطأ لجميع الأصوات التي سماها علم

الصوت في الوقت الحاضر بالأصوات الذلقة Linguals والتي حدّدت بوصفها أصواتاً تصدر - بالضرورة - عن استخدام اللسان. ومنذ ذلك الوقت ثبتّت هذه الحقائق لعصور عديدة. وعلى سبيل المثال، ففي بداية هذا القرن، كان الفيزيائي هيرمان جوتزمان Hermann Gutzmann الذي كان أحد أشهر الباحثين في حقل أخطاء التلفظ - مضطراً لأن يعترف بها، في حين تستخدم الكلمة نفسها (Langue) في الفرنسية لتعيين جزء من الفم (اللسان The tongue) واللغة نفسها، وفي الحقيقة، بقدر ما يكون الأول هو المعنى فإن الأخيرة تكون غير ضرورية، لأن كل الأصوات - تقريباً - التي تصدرها يمكن أن تنتج إذا كانت هناك بالضرورة طريقة مختلفة تماماً ومتغيرة بإطلاق من دون الظواهر الاكوستيكية (Deskindes Sprache und Sprachfehler, Leipzig, 1894) / وإذا ما فقد أحد الأعضاء الصوتية فيمكن آنذاك أن يؤدي عضو صوتي آخر وظيفة في مكانه من دون أن يكون السامع مدركاً هذا الفقدان وعلى أية حال، فقد بيّن جوتزمان أن هناك اعتراضات على هذا الرأي. وهكذا تتطلب الحروف الصفيرية sibilants - الحرفان الاحتكاكيان S, Z fricative والحروف الاحتكاكية المناظرة - استخدام الإسنان. وعلى أية حال فقد بيّن البحث اللاحق - بصورة مقنعة - أن هذه الاعتراضات الظاهرية هي ليست كذلك في حقيقتها على الإطلاق. لقد بين جدفري اي .أرنولد Godfrey E. Arnold - مدير عيادة أمراض اللغة في فيينا - Arehiv furgesamte phonetik, III, 1939 أنه حتى لو فقدت القواطع incisors، فإن قابلية تلفظ الأحرف الصفيرية يبقى سليماً على نحو مضبوط ما دام سماع الشخص اعتيادياً. وفي حالات معينة حيث

تسبب الأحرف الأسنانية dental الشاذة أخطاء في التلفظ، يجد المرء دائماً أن سماعه يضعف، وإن هذا يحول دون التعويض الوظيفي للشذوذ التشريحي.

لقد وصف وناقش كرستوف هيلفاج Christoph Hellwag - الذي كان أحد أشهر رواد علم الصوت الحركي ومكتشف المثلث الصائتي ;Vocalic triangle - هذا الاكتشاف المهم في بحثه: De formatione loguelae (Tubingen, 1781) وفجأة يطرح في بداية كتابه المشكلة التالية: إذا كنّا ندين بقدرتنا على الكلام لأعضائنا النطقية، فكيف تسنّى للإفعى - والتي تفتقر إلى هذه الأعضاء - أن تتحدث مع حوّاء يمكن أن يستبدل سؤال هيلفاج الغريب بآخر، حيث يكون - مع ذلك - متكافئاً - بصورة جوهرية - لكونه تجريبياً أكثر. يسعى علم الصوت إلى تتبع منشأ أصوات لغتنا من الأنواع المختلفة للاحتكاك بين اللسان من جهة والحنك palate والأسنان والشفتين... إلخ من جهة أخرى. ولكن، إذا كانت هذه الميزات المختلفة للنطق نفسها أساسية جداً وحاسمة، فكيف سيتسنّى للببغاء أن يعيد إنتاج عدد كبير جداً من أصوات لغتنا وبأمانة، على الرغم من حقيقة أن جهازه الصوتي مختلف جداً عن جهازنا الصوتي؟.

تقودنا كل هذه النظرات إلى نتيجة بسيطة ومع ذلك متجاهلة في الأغلبية الواسعة لأعمال علم الصوت. نحن لا نستطيع أن نصنف - أو حتى أن نعطي وصفاً دقيقاً - أنواع النطق المختلفة ما لم نلزم تفكيرنا - باستمرار بالسؤال التالي:

ما هي الوظيفة الاكوستيكية لهذا الأداء الحركي أو ذاك؟

وهكذا، انتبه علماء الأصوات، بحذر، في دراسة الصوامت

Consonants إلى المواضع التي وضحوها، وفي تصنيف الصوامت فقد نظموها على خطّ طبقاً لوضع تلك المواضع في الفم: أولاً الأحرف الشفوية libials، وبعد ذلك الأحرف الأسنانية dentals، ثم الأحرف الحنكية Palatals، وأخيراً الصوامت الطبقية Velars حيث تكون مواضع النطق وراء الحنك الصلب hard palate. ولوقت طويل بقيت مبهمة الواقعة القائلة أن الصوامت الطبقية تتغير إلى الصوامت الشفوية والعكس بالعكس، أو أنها موضحة بالصيغة الغامضة: إن المتقابلات القصوى تأتي معاً. ولكن إذا ما تخلينا عن معالجة مواضع النطق كما لو كانت مواضع مستقلة ومتغيرة وتساءلنا ـ بدلاً من ذلك ـ عن أغراضها، حين ذاك ندرك ـ حالاً ـ أنها تؤدي وظيفتها ـ بصورة رئيسة ـ بوساطة تشكيل نمطين مختلفين من جهاز الرنين (الران) resonator. إن كلاّ من الصوامت الشفوية المنطوقة بالشفتين، والصوامت الطبقية المنطوقة بالحنك الرخو، تتضمن تشكيل جهاز رنين طويل أو مستمر، ومن جانب آخر في نطق الصوامت الأسنانية والصوامت الحنكية، يقسم اللسان جهاز الرنين، التجويف الفمي، إلى جزأين قصيرين. وكما نعلم الآن من الاكوستيكية العامة أن درجة الرنين Pitch of resonance تزداد عندما يتناقص تجويف الرنين. وهكذا، فإن ما هو مشترك بين الصوامت الطبقية والصوامت الشفوية هو طول جهاز الرنين والثقل المتساوق للرنين. إن وقائع من مثل التغير من Lact إلى Lapt ومن direct إلى drept في اللغة الرومانية، والتي عدّت غامضة لوقت طويل، إن هذه الوقائع أصبحت واضحة بفضل تلك الوسيلة. وعلاوة على ذلك، فإن إمكانية إنجاز الأثر الاكوستيكي نفسه بوساطة وسائل نطقية مختلفة (وبشكل خاص التعويضات

الوظيفية للشواذ التشريحية في الأعضاء الصوتية) تجيز لنا وتحثّنا على البحث عن السمات المشتركة لهذه المنطوقات المختلفة حيث تحدد هوية آثارها الاكوستيكية وتكشف لنا عن ماهية المنطوقات، أي جوانبها الوثيقة الصلة بالموضوع.

والآن، فإن علم الصوت الاكوستيكي ليس اكتشافاً حديثاً. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر، كان الفيزيائيون مهتمين بأصوات اللغة، ولا سيما في اكوستيكية الصوائت Vowels. بيد أنه على النقيض من دراسة النطق، ليس لعلم الصوت الاكوستيكي تأثير ـ على الإطلاق ـ في اللسانيات التقليدية، خاصة وأنها لم تضع علامة بارزة على النحويين الجدد neogrammarians. إن هذا واضح إلى حدّ ما، كما وضحناه سابقاً بوساطة الاتجاه النشوئي في اللسانيات، وإلى حد ما بوساطة السمة التأملية المفرطة وغير الواثقة للمحاولات الأولى في الاكوستيكية اللغوية. ولكن، خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة، أحرز البحث الاكوستيكي للأصوات اللغوية تقدماً سريعاً، أو ربما يستطيع المرء أن يقول: تقدماً معجزاً. إن كثيراً من الأشياء هي التي سمحت بهذا التطور، ولا سيما إنجاز مناهج الوصف التجريبي في علم النفس الحديث والظاهراتية phenomenology، والموضحة ـ بشكل فذّ في الأعمال الرئيسة لولفغانغ كوهلر Walfgang Kohler (Akustische Untersuchungen, Zeitschrift fur Psychologie, 1910 - 15 (Die Sprachlaute, Berlin. 1926) وكارل ستومبف Carl Stumpf.

يمكننا الآن أن نعتمد على البحث في الاكوستيكية الذي أنجز بارتباط مع التطورات في الاتصال الهاتفي والمذياع والشريط

التصويري الصوتي في أوربا وقبل ذلك في أميركا، ويمكننا أن نستخدم الوسائل الجديدة التي يستطيع هذا البحث أن يمنحها شأناً ذا بال ولا سيما مرسمات الطيف الصوتية spectrographs ومرسمات الذبذبات (منوسات) Oscillographs .. إلخ وبفضل الهاتف ـ الحاكي (فونوغراف) gramophne وقبل ذلك المذياع، أصبحنا نألف سماع الكلام في غياب المتكلم. إن الفعل النطقي عتّم بوساطة نتاجاته الصوتية، وهو يتجه أكثر فأكثر إلى الأخيرة حيث يصرف الناس انتباههم عنه.

وفيما بقيت دراسة النطق ـ حتى لو سميت بعلم الصوت التجريبي ـ على الأقل وفي أغلب الأحوال مجرد شيء ملاحظ، فإن الاكوستيكية الحديثة بالمقابل وظفت مدىً أوسع من المناهج التجريبية.

إن الصوت مرشح، ويمكن أن تكون بعض عناصره محوّلة بتعمد، كما يمكن أن تكون مفكّكة ومنسّقة. وفي القرن الثامن عشر حاول رواد علم الصوت الحديث أن ينشئوا الآلة المتكلمة بتقليد جهازنا الصوتي، بيد أنه أصبح من الممكن ـ في الوقت الحاضر ـ أن تحاكي الأصوات اللغوية بوساطة أحداث مكوناتها الاكوستيكية المختلفة باستخدام وسائل خاصة. وقد نجحنا الآن في إيجاد ـ وعلى نحو اصطناعي ـ أن لم يكن القزم فعلى الأقل الجوهر الصوتي لكلامه. ويمكننا ـ لأول وهلة ـ أن نسمع الأصوات البشرية، وليس هذا هو المدى الأقصى الذي يشترك فيه التجريب في الاكوستيكية في هذا الاتجاه، ويَعِدُ الشريط التصويري الصوتي بأن يطلعنا على مدى بعيد جداً في المستقبل. إن الجانب الفيزيائي للأصوات ـ أي الحركات الاهتزازية Vibratory المعقدة التي تحدثها أعضاء الكلام في الهواء أنتج ـ الآن ـ بشكل بصري

على بكرة الشريط التصويري الصوتي. وعندما تتاح الفرصة لأي شخص لأن يفحص ـ عن كثب ـ بكرة الشريط التصويري الصوتي فسوف يعلم أن لأيّ صوت لغوي يظهر على الشريط سمته البصرية المميزة. وإن هذه العملية ذات ميزة كبيرة حيث يمكن لعمال الشريط أن يتعلموا قراءة محاورة الشريط بسهولة من بكرة الشريط نفسها. وعندما يظهر الشريط هذه الصور المرئية للأصوات مرة واحدة ينعطف أكثر إلى الظواهر الاكوستيكية. إن هذه العملية تكشف عن كثير من الإمكانيات للتجريب الصوتي، وإن معرفة التمثيل المرئي لكل صوت يضع إمكانية لفت الانتباه مباشرة إلى الكلام ومن ثم تحويل الصوت ـ عن طريق الشريط ـ إلى ظاهرة يمكن سماعها، إن هذه العملية تضع ـ بذلك ـ إمكانية سماع الكلام الذي لم ينطقه أي شخص. وليس هناك حاجة للتحدد بمحاكاة الأصوات التي نعرفها سابقاً وعلى نحو تقليدي. وفي رسم الأصوات يمكن للمرء ـ تدريجياً ـ أن يغيّر ويشوّه معادلاتها المرئية لكي ينجز ـ قبلاً ـ تأثيراتها الاكوستيكية اللامألوفة.

إن علم الصوت الاكوستيكي ـ الذي تطور وازداد ثراء بسرعة مذهلة ـ يمكّننا الآن من أن نحلّ كثيراً من ألغاز الصوت، الألغاز التي لم يستطيع حتى أن يبدأ بحلّها علم الصوت الحركي. وعلى أية حال، حتى لو كان لعلم الصوت الاكوستيكي قوة أكثر تنظيماً بصورة غير محدودة، فإنه ـ ليس أكثر من علم الصوت الحركي ـ لا يستطيع أن يزودنا بمبدأ أساسي مستقل لتنظيم وتصنيف الظواهر الصوتية للغة.

لقد واجه علم الصوت الاكوستيكي ـ أساساً ـ العقبات نفسها التي واجهها علم الصوت الحركي. وفي بادىء الأمر، عزت

الاكوستيكية إلى الأصوات المختلفة عدداً محدوداً فقط من السمات المميزة، وهذا لا يعني أن تلك السمات المعينة ليست أكثر جوهرية. إن الحدود كانت مطلوبة قبل ذلك لحقيقة أن القدرات التحليلية للاتجاه الجديد كانت مقيدة إلى حدّ ما وإلى الآن. غير أنه لو راجعنا ـ بصورة شاملة ـ العمل الحديث في حقل علم الصوت الاكوستيكي، وعلى سبيل المثال منوغرافية monograph أنتي سوفيبيارفي Antti Sovijar Vi في الصوائت والأصوات الأنفية في اللغة الفنلندية Die gehaltenen, geflusterten und Vokale und Nasale der finnischen Sprache (Helsinki, 1938). لوجدنا أنفسنا ـ مرة أخرى ـ بمواجهة تعدد مذهل للتفصيلات التي تتعلق بخصائص كل صوت، فالصوت يكون مقسماً على أجزاء مختلفة لا تعد ولا تحصى.

إن كلاً من علم الصوت الحركي وعلم الصوت الاكوستيكي تكشّفا ـ على حد سواء ـ عن عجز عن تقديم أي تنظيم لهذا الخليط، وعجز عن تحديد الخصائص ذات الصلة الوثيقة به، والسمات المكونة وغير القابلة للتحويل لكل صوت. يمكن للأكوستيكية أن تزوّدنا ـ بتفصيل مثير ـ بصورة مجهرية micrographic لكل صوت، ولكنها لا تستطيع أن تفسّرَ هذه الصورة، كما أنها ليست في وضع يجعل الاستفادة من نتائجها الخاصة ممكنة. وهي كما لو كانت حروفاً للغة الهيروغليفية Hieroglyphics غير المعروفة. وعندما يظهر صوتان ـ كما هو الحال دائماً ـ متشابهين ولا متشابهين فليس للأكوستيكية ـ ليس لها معيار أساسي لتمييز ما هو دال مما هو غير دال ـ طريقة لمعرفة ما إذا كانا متشابهين أم لا حيث تكون حاسمة في أية حالة

معينة. إنها لا تستطيع أن تخبرنا ما إذا كانت الحالة حالة تنوعين لصوت واحد أم حالة صوتين مختلفين.

إن هذه الصعوبة الرئيسة لم تواجهها الاكوستيكية التجريبية فحسب، بل يواجهها أي منهج للتدوين الصوتي للظواهر السمعية، وعلى مدى أوسع فإن التدوين مبنيّ ـ كلية ـ على الإدراك السمعي الخالص. إن هذه التدوينات التي أكرهت على ملاحظة جميع الفروق الدقيقة للتلفظ، بل حتى الفروق الأكثر دقة، كانت مدركة بصعوبة ومصادفة لهذه الاختلافات فيما بينها ـ وهي كما ألمح أنطوان ماييه Antoine Meillet صعبة في القراءة وصعبة في الطبع. وإن هذه ليست صعوبة تقنية خالصة. إنها ـ مرة ثانية ـ المشكلة المربكة للوحدة ضمن التنوع، ومن دون حل لهذه المشكلة المشوشة، فلا يمكن أن يكون ثمة نظام أو تصنيف. إن الجوهر الصوتي للغة يصبح كالغبار. وعندما نواجه بمشكلة مشابهة فيما يتعلق بعلم الصوت الحركي يجب أن نذكر معياراً خارجياً ونتساءل عن الغرض المباشر للمنطوقات ـ أو بصيغة أكثر دقة ـ نتساءل عن غرضها الاكوستيكي. ينبغي ـ الآن ـ أن نسأل:

ما هو الغرض المباشر للأصوات التي تعدّ ظواهر اكوستيكية؟

وبظهور هذا السؤال، فإننا نمضي ـ حالاً ـ إلى ما وراء مستوى الدال Signifier إلى ما وراء ميدان الصوت بحد ذاته، وندخل ميدان المدلول signified ندخل ميدان المعنى. نحن نقول أننا نتكلم لكي نكون مسموعين، ويجب أن نضيف أننا نقصد بـ : لكي نكون مسموعين، لكي نكون مفهومين. إن الطريق تمتد من الفعل النطقي إلى الصوت، وبمعنى ضيق، فإنها تمتد من الصوت

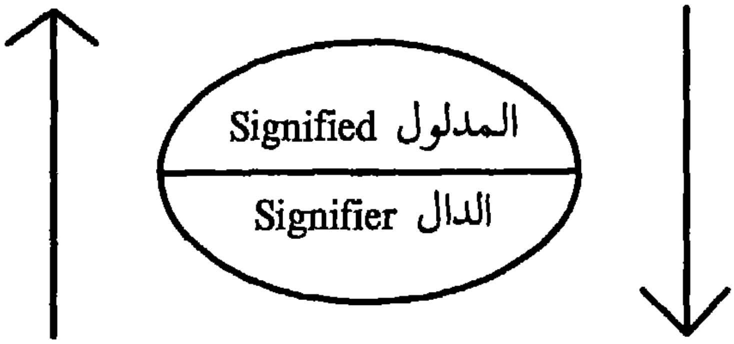
إلى المعنى وفي هذه النقطة نحن نغادر منطقة علم الصوت، وهو الفرع الذي يدرس الأصوات في جانبيها الحركي والاكوستيكي فحسب، وندخل منطقة جديدة، وهي منطقة النظام الصوتي phonology التي تدرس أصوات اللغة في جانبها اللغوي.

روى الكاتب الرومانسي الروسي فلاديمير أوديفسكي Vladimir Odoevskij ـ قبل مائة سنة ـ قصة الرجل الذي تلقى من الساحر الحاقد هدية تمكّن من رؤية كل شيء وسماع كل شيء: «كل شيء في الطبيعة أصبح مجزّأً أمامه، ولا شيء متشكل ـ جملة ـ في ذهنه»، وبالنسبة لهذا الرجل التعيس الحظ، أصبحت أصوات الكلام متحولة إلى وابل من حركات نطقية واهتزازات آلية لا تعدّ ولا تحصى، ومن دون غرض أو معنى.

إن نصر التجريبية الساذجة لم يستطع أن يكون متنبئاً ومتمثلاً بطريقة أكثر فعالية. وفي مختبرات علماء هذه النزعة، كانت الموارد الصوتية للغة مقسمة على تعدد الوقائع المجهرية التي أنشؤوها على القياس باهتمام كبير، بينما أهملوا ـ بتعمد ـ هدفهم ومسوّغهم. لقد كانت (التجريبية الساذجة) في انسجام مع هذا المقترب حيث تعلم النظّامون metrists ـ في ذلك الوقت ـ أن أحدهم يمكن أن يدرس الشعر فقط إذا ما نسي كلاً من اللغة التي يكتب بها والمعنى الذي ينقله. وفي الواقع فإن دراسة أصوات اللغة فقدت مساسها بالمشكلة اللغوية تماماً، أي قيمتها بوصفها إشارات لفظية. إن الصورة المثبطة للهمّة لتعدد الوقائع المشوش بشكل تام، اقترحت ـ على نحو محتوم ـ المبدأ المتناقض، أي مبدأ الوحدة والتنظيم. إن النظام الصوتي phonology، يقول أستاذ اللسانيات الفرنسية أنطوان ماييه: «تحررنا من الكابوس الذي يجثم علينا» وفي

المحاضرة القادمة، سوف نحاول أن نعرض ـ بدقة كبيرة ـ ماهية النظام الصوتي وكيف نجح في أن يعيد ربط مشكلة الصوت بمشكلة المعنى.

لقد قيل أن كل كلمة، وبصورة أكثر عمومية، كل إشارة لغوية هي كيان ذو جانبين فكل إشارة لغوية هي وحدة من الصوت والمعنى، أو بتعبير آخر، هي وحدة من الدال signifier (والكلمة اللاتينية Signans) والمدلول signified (والكلمة اللاتينية Signatum) لنتذكر المخطط الذي استخدم لتمثيل هذه العلاقة.



من الصحيح أن يقال أن هذين المكونين متصلان بصورة جوهرية، فكل واحد منهما يستدعي الآخر، كما هو مبين بالإشارات في المخطط أعلاه. لنأخذ، على سبيل المثال، الكلمة الفرنسية التي تكتب (Pain) (خبز). إن هذا الشكل التصويري، الذي هو الطريقة التي تنتج فيه هذه الكلمة بالكتابة ـ هو شكل ناشيء عن الموروث أو التاريخ، ولا يلبث أن يتطابق مع الطريقة التي تلفظ بها هذه الكلمة فعلياً، وتكمل في بعض المعاجم بتدوين صوتي مفصل. تقريباً. فما هو الشكل الصوتي الحالي للكلمة؟ إنه (pɛ̃) (الصامت /P/ زائداً الصائت الأنفي)، وهذا هو الدال للكلمة. ويواصل المعجم على إطلاعنا على معنى الكلمة وهو:

(طعام مصنوع من العجين، بإضافة خميرة، ويشوى في فرن)، وهذا هو مدلول كلمة خبز.

إذا قال شخص ما /pέ/، فإن هذا الدال يثير فينا المدلول المطابق، أي فكرة طعام مصنوع من العجين ومضاف إليه خميرة ويشوى في فرن. ومن جهة أخرى إذا ما فكرنا في هذا النوع من الطعام، وإذا ما حدث أن تم تفكيرنا باللغة الفرنسية، فإن التمثيل الحركي، والاكوستيكي الذي يتبادر إلى الذهن هو التمثيل الصوتي /PέΈ/ بيد أن هذه العلاقة الجوهرية بين الأصوات والمعنى هي علاقة جلية وواضحة تماماً، ولكن هذه العلاقة كانت قد درست ـ كما بينا ذلك سابقاً ـ حديثاً فقط وبصورة منهجية، وما زالت هذه الدراسة، حتى الآن، بعيدة عن كونها مكتملة. نحن نعرف أن سلسلة أفعال الأصوات هي بمثابة أساس للمعنى، ولكن نحن بحاجة لأن نعرف كيفية إنجاز الأصوات لهذه الوظيفة. لقد استخدمنا، سابقاً، استعارة معينة، فقد قلنا أن هذا يؤدي إلى مشكلة اكتشاف كمّات اللغة، بمعنى أنه يؤدي إلى تعيين العناصر الصوتية الصغرى ذات القيمة الدالة.

حقاً أن المادة الصوتية قد درست بصورة كاملة، وقد أنتجت هذه الدراسات، ولا سيما خلال السنوات الخمسين الأخيرة، فيضاً من النتائج التوضيحية. إلا أن الظواهر، قيد الدرس، قد بحثت ـ في أغلب الأحوال ـ بمعزل عن وظائفها. ومن المستحيل، في هذه الظروف، أن نصنف، أو حتى أن نفهم هذه الظواهر وسيكون من المستحيل ـ على الشاكلة ذاتها ـ أن نفهم وأن نصنف الآليات أو الوسائل الأخرى طالما كان الانتباه منصباً حصراً على المضامين التي تكونها، أو على شكلها الخارجي من دون اعتبار لما تستخدم

له. ولكي نكون قادرين على تفسير الأفعال المتنوعة وتصنيفها لأعضائنا الصوتية فإنه من الضروري أن تؤخذ بنظر الاعتبار الظواهر الصوتية التي تهدف هذه الأفعال إلى إنتاجها، لأننا نتكلم لكي نكون مسموعين، ولكي نكون قادرين على تفسير وتصنيف وتحديد الأصوات المتنوعة للغتنا. يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار المعنى الذي تحمله هذه الأصوات، فمن أجل أن نكون مفهومين نسعى إلى أن نكون مسموعين.

إذا نظرنا إلى ظاهرة صوتية معينة ـ النبر stress ـ مثلاً ـ من ناحية كونه ظاهرة صوتية خالصة، أي من وجهة نظر حسية Sensualist خالصة، فسوف تبين لنا الملاحظة المباشرة للوقائع الحركية والاكوستيكية والتحليل الآلي instrumental analysis لها، إن الخصائص القابلة للملاحظة لهذه الظاهرة هي ذاتها، بصورة جوهرية، في لغات مختلفة متنوعة. لقد درست الشدة intensity السمعية وتحديداتها الفسلجية، وقد ألقت هذه الدراسة، الضوء على الدور الذي لعبه طول الوترين الصوتيين vocal cords لكي تنتج صوتاً عالياً نضع قوة أكبر في مجرى الهواء، هذه القوة الآلية mechanical تزيد من طول الوترين الصوتيين، وتزيد اهتزازاتها من الاتساع، وبالنتيجة يصبح الصوت عالياً. وبمقارنة النبر في لغات مختلفة لوحظ أنه يمكن أن يختلف في الدرجة ويمكن أن يتصل، بطرق مختلفة، بدرجة الصوت pitch ومدته duration، ولكن عملية النبر متماثلة بصورة أساسية في ذاتها في اللغات المختلفة.

وبمقابل هذا فإن الاستخدام الذي تهيئه اللغة للنبر ـ الوظائف اللغوية للنبر ـ تتغير من لغة إلى أخرى ـ ولتوضيح هذا نستطيع مقارنة جملة بسيطة في لغتين سلافيتين Slavic، ـ بدقة ـ على

الرغم من أن لهاتين اللغتين إرثاً مشتركاً، وعلى الرغم من أنهما متشابهتان تماماً في كثير من الجوانب، إلا أن اللغات السلافية تختلف تماماً الواحدة عن الأخرى في استخدامها النبر. فعلى سبيل المثال:

في اللغة الروسية: المرأة العجوز تحصد الحقل babakosit pole
في اللغة التشيكية: المرأة العجوز تحصد الحقل babakosi pole.

في كل من الكلمات الثلاث لهذه الجملة ينصب النبر، في كلا اللغتين الروسية والتشيكية، على المقطع الأول، ويبدو أن دور النبر هو ذاته بالضبط في كلا اللغتين. ومع ذلك فليس ثمة شيء غير الحقيقة: فعلى الرغم من أن للنبر تشابهاً خارجياً في كلا الحالتين فإنه ينجز، فعلاً، وظيفة مختلفة في كل من الجملتين، حيث يكون موضع النبر، في اللغة الروسية، قابلاً للتغير، فتارة يكون النبر، في كلمات معينة، على المقطع الأول، وتارة أخرى، في كلمات أخرى، على المقطع الثاني... وهكذا، وبالنتيجة فإن النبر يستطيع أن يؤدي عملاً بوصفه طريقة لتمييز كلمات بمعان مختلفة، ويكون لمجموعة الأصوات (muka) نفسها معنى كلمة: عذاب عندما ينصب النبر على المقطع الأول (muka، ويكون لها معنى كلمة: طحين عندما ينصب النبر، على المقطع الثاني muka).

ولذا، قلنا في الجملة التي استخدمناها كمثال، baba kosit بدلاً من baba kosi، فلن يعود معنى الجملة: المرأة العجوز تحصد، بل: المرأة العجوز تنظر شزراً. ومن جهة أخرى ينصب النبر، في اللغة التشيكية، على المقطع الأول دائماً، وإذن ليس بمقدورها أن تميز معاني الكلمات، فليست وظيفتها تمييزية، بل

إن وظيفها ـ على العكس ـ تحديدية، بمعنى أن النبر يدل على بداية الكلمة: baba kosī pole، ويطلعنا النبر على حدود الكلمات ضمن الجملة. إن هذه الوظيفة التحديدية للنبر ليست موجودة في اللغة الروسية. ينجز النبر في كلا اللغتين وظيفة تفريقية disjunctive حيث تبين النبور للسامع عدد الكلمات في الجملة، أي عدد العناصر المكونة لها فتكون الجملة: baba kosi pole، من ثلاثة نبور، وثلاث كلمات، أي ثلاثة عناصر تركيبية syntactic أساسية. ويمكن إكمال هذه الوظيفة بوظيفة ثانوية. فعندما يكون النبر على جزء معين أكثر من غيره فإن ذلك يمنحه البروز إذ يبين النبر أن هذا الجزء، أو الكلمة، هو نقطة انطلاق الجملة. فعندما يمنح نبر أقوى لفاعل الجملة b'Aba kosit pole فنحن نعني: إن المرأة العجوز هي التي تحصد الحقل، وإذا انصبَّ النبر على المفعول به bAba kosit pŏle، فيمكن أن تترجم أنه الحقل الذي تحصده المرأة العجوز. أو ـ مرة أخرى ـ يمكن أن يمنح المسند (Kósit)، بموجب النبرة، بروزاً أكثر من الكلمات الأخرى.

إن ما هو أساسي، بالنسبة لكل هذه الوظائف التي ذكرناها، هو، فقط، الوظيفة التفريقية التي ينجزها النبر في اللغة الفرنسية. إن هناك وظيفة أخرى علاوة على الوظائف التي تساهم في تواصل الأفكار أو المضامين الذهنية، هي الوظيفة الانفعالية، التعبيرية، أو التوكيدية، وفي أداء هذه الوظيفة في اللغة الفرنسية ينقل النبر من نهاية الكلمة إلى بدايتها. وهنا بعض الأمثلة مقتبسة من عالم الأصوات ليون روديه Lèonce Roudet الذي كان أول من بيّن هذه الحقيقة: أنت تعيس Vous êtes misérable وأن ذلك همجي C'est barbare.

لقد أحصينا بضع وظائف تنجزها العناصر الصوتية في اللغة، ولكن أية وظيفة من بين تلك الوظائف، تؤدي الدور الأكثر أساسية من وجهة نظر لغوية؟ ما هي الوظيفة الأساسية؟ ليس من الصعوبة الجواب عن هذا السؤال. وإذا ما خاطبنا شخصاً معيناً بلغة لا نألفها، فإن السؤال الأول الذي يجب طرحه هو: ما معنى هذا التفوه؟ ما الذي تعنيه هذه الكلمات؟

إن الوظيفة التمييزية، أي قابلية الأصوات على تمييز الكلمات طبقاً لمعانيها، هي الوظيفة الأكثر أهمية. ومع أننا نعنىٰ بتعددية الوظائف اللغوية للأصوات، يجب أن نتأمل، أولاً، وظيفتها التمييزية.

إذا نظرنا إلى كلمات فرنسية من قبيل: de (de) النرد وdias (dƐ) منصة، نستطيع أن نلاحظ أن الاختلاف بين الصوتين المغلق /e/ والمفتوح /Ɛ/، يقوم هنا بتمييز الكلمتين. وإذا نظرنا إلى المجموعة الصوتية للغة الروسية نستطيع أن نجد، بين الصوائت المنبورة، صوتين متناظرين، الصوت الأكثر غلقاً /e/ في الكلمة (mel' (= m'Ɛ l، والصوت الأكثر فتحاً (Ɛ)، في الكلمة: (mel (= m'Ɛ l طباشير. فيظهر الصوت المغلق (e) دائماً، في اللغة الروسية، قبل الصوامت الحنكية فقط، ويظهر الصوت المفتوح (Ɛ) في كل المواقع الأخرى.

لنتذكر أن الصوامت الحنكية تلفظ عن طريق ضغط أعلى اللسان على الحنك، أي برانٍ resonator فمي مسطح، وتكوّن، إذن، نغمة عالية حادة. إذن لا يُمكن للصوتين (e) المغلق و(Ɛ) المفتوح، في اللغة الروسية، أن يظهرا في الموقع نفسه، ولا يقدران، كذلك، على التمييز بين الكلمات، تستطيع أن ترى، إذن، أن الاختلاف

الأساسي بين الثنائي (e, Ɛ) في اللغة الفرنسية، وما يناظره في اللغة الروسية، حيث يكون لهذا الثنائي من اللغة الفرنسية، قيمة تمييزية يفتقر إليها في اللغة الروسية.

لقد أعطيت الأصوات ذات القيمة التمييزية، أي تلك الأصوات القادرة على تمييز الكلمات، اسماً في اللسانيات، إذ دعيت بالفونيمات phonemes. وهكذا يكون الصوتان (e) المغلق، و(Ɛ) المفتوح، في اللغة الروسية تنويعين، فقط، للفونيم الواحد نفسه، فهما يدعيان تنويعين تأليفيين Combinatory variants، لأنهما يعتمدان على تأليف الأصوات فحسب: فقبل الصوامت الحنكية يكون الصائت (e) مغلقاً، ومفتوحاً في تأليفات أخرى.

لا يكون الصوتان (e) المغلق و(Ɛ) المفتوح في اللغة التشيكية قادرين كذلك على التمييز بين معاني الكلمات. وهما، مرة أخرى، تنويعان للفونيم نفسه، إلاّ أن توزيع هذين التنوعين مختلف تماماً عما هو عليه في اللغة الروسية. وفي أسلوب ندعوه أسلوب محايد، تستخدم اللغة التشيكية الصوت المفتوح (Ɛ)، في حين أنه من أسلوب مصطنع ـ ولكن بصوت أكثر تخصيصاً، في أسلوب شعبي، في لغة أدنى ـ يمكن للصوت المغلق (e) أن يكون مسموعاً. وفيما يكون الصائتان، في اللغة الروسية، تنوعين تأليفيين، يتغيران مع السياق الصوتي للفونيم الذي نحن بصدده، فهما يؤديان، في اللغة التشيكية، وظيفة بوصفهما تنويعين أسلوبيين، فصيغة المنادى: أيها الرفيق (pƐ piku) تصبح (pepiku!) في كلام أقل تكلفاً. على الرغم من أن الصوتين، المغلق (e) والمفتوح (Ɛ)، يلفظان في كل من الروسية والتشيكية ـ يتغير في اللغة الروسية تبعاً

للأصوات المجاورة، ويتغير في اللغة التشيكية تبعاً لأسلوب الكلام ـ إلا أنه من الصعوبة ـ مع ذلك على الروس والتشيك أن يستخدموا الصوتين الفرنسيين (المفتوح /ε/ ، والمغلق /e/) بصورة صحيحة كفونيمات مختلفة ـ أو حتى لملاحظة هذا الاختلاف من دون جهد في أزواج من الكلمات مثل: Le dais و Le dé، أو حليب (Lε) Le lait وعرض «Le lé (Le)». ويفسر هذا بالحقيقة القائلة، إن الاختلاف بين الصائتين، في هاتين اللغتين السلافيتين، غير قادر على تحديد التمييز بين معاني الكلمات. ومن جهة أخرى تحتوي اللغتان التشيكية والهنغارية Hungarian بالإضافة إلى صوامت أسنانية dental، سلسلة متجاورة من الصوامت الحنكية الأمامية prepalatal، التي تلفظ إلى حد أبعد من الأسنان، بمعنى أنها تلفظ في الجزء الأمامي من الحنك الصلب، فعلى سبيل المثال، وباستخدام التهجئة التشيكية المألوفة، للكلمتين: رأى (Sít)، والشبكة sit'. يكون هذان، إذن، فونيمين مختلفين، الأول أسناني والآخر حنكي أمامي، ثمة ثنائي مناظر بين الفونيمات المجهورة voiced: في التهجئة المألوفة تكون الكلمة (dej) أمرية و(dĕj) تعبر عن الفعل.

والآن فإن الصوامت الحنكية الأمامية نفسها موجودة في التلفظ الفرنسي الشعبي، فعلى سبيل المثال فإنها موجودة قبل الصوت شبه الصائت semi-vowel للكلمة الفرنسية: شفقة (pitĕ)، كما تتكلمها الطبقة العاملة الباريسية، بيد أن الأصوات الانسدادية occlusives لهذه الطريقة الفرنسية في الحديث ـ بمقابل اللغتين التشيكية والهنغارية ـ لا تضع فونيماً حنكياً أمامياً تجاه فونيم أسناني. وهنا تكون الأصوات الانسدادية الأسنانية والأصوات الانسدادية الحنكية

الأمامية مجرد تنويعات تأليفية لفونيم مطرد. فيظهر التنويع الحنكي الأمامي قبل الصوت نصف الصائت الحنكي الأمامي، ويظهر التنويع الأسناني في كل المواقع الأخرى. وبينما يكون للصامت الحنكي الأمامي مكاناً في المجموعة الصوتية للغة الفرنسية الشعبية فإنها لا تنجز وظيفة تمييزية. وبصورة مماثلة فإن كلا تنوعي الصوت (k) ـ أحدهما صامت طبقي (خلفي) يلفظ عند الحنك الرخو (الطبق) والآخر أسناني يلفظ في موقع أمامي أبعد عند الحنك الصلب ـ وكلاهما يظهر في تلفظ اللغة الفرنسية. يستخدم المتنوع الأمامي لهذا الصامت في طرق الحديث الفرنسية المتنوعة قبل الصوائت الأمامية، وخصوصاً قبل (i) ويوجد، غالباً اختلاف واضح جداً بين الأصوات الاستهلالية للكلمات: (cas) حالة، و(qui) الذي، بيد أنهما تنويعان تأليفيان فقط، وليس لهذا الاختلاف قيمة مستقلة في اللغة الفرنسية، وبالمقابل ثمة فونيمان متميزان تماماً في اللغة البولندية polish واللغة الرومانية Romanian. ففي اللغة الرومانية، مثلاً يكون المتنوع الأسناني للصامت الانسدادي في الكلمة (chiu) يبكي، الانسدادي أو الكلمة: (chiar = الشيء نفسه)، (إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار هنا التهجئة المألوفة) مقابلاً للصامت الانسدادي الطبقي للكلمة (cu) مع، أو الكلمة (car) عربة.

تستخدم اللغة الايرلندية Irish حضور الصوت أو غيابه لا لتميز (d) من (t) و (g) من (k) إلخ فقط، وإنما، كذلك، لتمييز فونيمين جانبيين مختلفين: الفونيم المجهور (L)، والفونيم المهموس (L̥): La و La والآن يستخدم هذان الصوتان، أيضاً، في التلفظ في اللغة الفرنسية، بيد أن متكلماً فرنسياً، ليس لديه معرفة بعلم الصوت لن يلاحظ هذا، طالما أن هذا الثنائي، الذي يستخدم في اللغة

الايرلندية للتمييز بين كلمتين ذواتي معنيين مختلفين لا يستطيع إنجاز هذه الوظيفة في اللغة الفرنسية، إذ يكون هذان الفونيمان، في هذه اللغة، بمثابة تنويعين تأليفيين: فالصوت المهموسL، الذي يلفظ من دون اهتزاز الأوتار الصوتية، يظهر في نهاية الكلمات بعد صوامت مهموسة، كما في الكلمة (peuple) (الناس)، وفي كل المواقع الأخرى يكون (L) مجهوراً، كما في الكلمة: (peupler) (إلى الناس).

تميز اللغة الانكليزية بين فونيمين مختلفين: فونيم شفوي أسناني Labiodental ويكتب (V)، وفونيم يلفظ بكلتا الشفتين bilabia، ويكتب (W) أن الفونيمين (V)، (W) هما ـ في اللغة السلافية ـ تنويعان تأليفيان لفونيم مفرد، يظهر على أنه الصوت الشفوي الأسناني (V) قبل الصوائت، وعلى أنه الصوت الملفوظ بكلتا الشفتين (W) في كل المواقع الأخرى.

يكون للفونيمين الرخيمين (r)، (L) في لغاتنا ـ وظائف متميزة بوضوح، (شعاع ـ يدفن ray ـ Lay)، فرو ـ مملوء fur ـ full)، إن ما يبدو غريباً لنا هو أن في بعض اللغات الأخرى يكون هذان الفونيمان مجرد تنويعين تأليفين لفونيم مفرد. وهكذا ففي اللغة الكورية Korean يمثل هذا الفونيم في بداية المقطع بالتنوع (L)، وبالتنوع (r) في نهايته (ومن المحتمل أن تكون للغة الهندو ـ أوربية Indo-european حالة مماثلة لهذا الجانب أصلاً). فمن الطبيعي بالنسبة لشخص كوري يتعلم الانكليزية أن يلفظ كلمة (round) بـ (L) استهلالي، وكلمة (Sell) بـ (r) في النهاية، وسوف يعكس تنظيم الفونيمين الرخيمين في الكلمة (rule)، التي ستخلط، عندئذ، بالكلمة (Lure). ومرة أخرى ثمة تمييز، في اللغة الفرنسية، بين

ثلاثة فونيمات صائتة في كلمات من قبيل (sou و su و si) في حين تكون هذه الفونيمات، في اللغة التشركسية Cherkess مجرد ثلاثة تنويعات تأليفية لفونيم مفرد (فونيم صائت ضيق narrow vowel) واختيار أحد هذه التنويعات يعتمد على طبيعة الفونيم الصامت السابق عليه.

ينبغي أن تكون هذه الأمثلة، على الرغم من أنها أولية، كافية لتوضيح الاختلاف الأساسي بين وجهة النظر الصوتية الصارمة التي تهدف، فقط، إلى ترتيب قائمة من الأصوات للغة ما ينظر إليها، ببساطة، بوصفها ظاهرة حركية واكوستيكية، وبين وجهة النظر الفونولوجية التي تتطلب منا اختبار القيمة اللغوية للأصوات، ووضع قائمة بالفونيمات، أي نظام للأصوات ينظر إليها بوصفها عناصر تساعد على تميز معاني الكلمات. وإذا ما قارنا هاتين القائمتين فسوف يتضح أنهما مختلفتان تماماً، ويكون مجموع الفونيمات بالنسبة لهاتين القائمتين محدداً إلى درجة كبيرة وأكثر وضوحاً وتفرداً descrete بالمعنى الرياضي للكلمة.

إذ تكشف لنا عن نظام متناسق ومتماسك، وإذا قارنا أية لغتين معينتين فسوف نرى، من وجهة نظر اكوستيكية وحركية، إن أصواتهما متطابقة، في حين تكون الطريقة التي يتجمعان عبرها في فونيمات هي طريقة مختلفة. فعلى سبيل المثال هناك بضعة لغات متجاورة في الشرق الأقصى تستخدم، جميعها، الصوت الأسناني (r) مع أنه في بعض تلك اللغات ـ Tungusic Language مثلاً ـ يكون الفونيمان (y)، (L) منفصلين، وفي لغات أخرى ـ الكورية مثلاً ـ يكون (r)، (L) تنويعين توليفيين لفونيم رخيم مفرد، وثمة

إمكانية ثالثة تتمثل في old Gilyak* Language التي تمثل فيها (r)، (t) تنويعين تأليفيين لفونيم أسناني مفرد. ففي الوضع الصوتي الداخلي intervocalic، فإن انغلاق مجرى الهواء الضروري بالنسبة إلى نطق (t) لم يكن كاملاً، وفي مثل هذه الظروف ينطق الفونيم الأسناني على شكل (r).

ومن جهة أخرى فإن فونيماً متطابقاً بصورة جوهرية يمكن أن يمثل في لغات مختلفة بوساطة أصوات يكون بينها، من وجهة نظر اكوستيكية وحركية، ثمة تنوع دلالي، فعلى سبيل المثال، يوجد في أغلبية لغات الشرق الأقصىٰ فونيم رخيم مفرد فقط، إلا أنه في الوقت الذي يتخذ فيه هذا الفونيم الشكل (L) في اللغة الصينية Chinese، يتخذ الشكل (r) في اللغة اليابانية Japanese، ويمثل في اللغة الكورية، كما قلنا سابقاً، بتنويعين تأليفيين، ولا تغير هذه الاختلافات الخارجية الخالصة، بأي حال من الأحوال، من حقيقة أن في كل تلك اللغات ثمة فونيماً رخيماً واحداً فقط.

لم يكن مفهوم الفونيم ـ مفهوم صوت مميز، أو بالأحرى ما هو مميز في الصوت ـ في اللسانيات مفهوماً جديداً. إذ يرجع أساساً الفضل في طرح مناقشة استهلالية لهذه المشكلة، في تاريخ اللسانيات، إلى بادوين دي كورتني، فقد اجْتَرَحَ هذا اللساني البولندي العظيم مفهوم الفونيم عام 1870، عندما كان عمره خمساً وعشرين عاماً، في محاضرته الافتتاحية في جامعة بطرسبورغ. فبالإضافة إلى الدراسة النطقية والسمعية الخالصة للأصوات اللغوية درس ملياً، ومنذ البداية، وظيفة الأصوات اللغوية من آلية اللغة،

---

* لغة جلياك: لغة ضربية قديمة كان يتكلمها سكان جزيرة ساخالين (المترجم).

والدلالة المنسوبة إليها بوساطة الحدس اللغوي للمتكلمين. فقد فهم بادوين الشاب، إن هذا الجانب الأخير لا يتطابق دائماً مع تصنيف المعطيات الصوتية على أساس خصائصها الفيزيائية والفسلجية، باختصار وحسب وجهة نظره في الموضوع. كان ما هو مهم في الأصوات اللغوية، لكل من اللغوي ومتكلم اللغة، هو وظائفها في تنظيم الكلمات. فاقترَحَ بادوين إنشاء فرع لغوي جديد، يدعى علم الصوت الأتمولوجي etymological phonetics وسوف يقوم هذا الفرع الجديد، طبقاً لمؤسسه، بتحليل العلاقات بين الخصائص الحركية ـ الاكوستيكية للأصوات وقيمها المعجمية والنحوية.

إن إبداعية بادوين وبصيرته المدهشة مكّنته من إثارة وتولي مناقشة استهلالية للمشكلات المركزية للسانيات، كما نعرفها نحن اليوم، إلا أن الضعف الأيديولوجي، أو اللايقين، لعصره، منع هذا العالم النابغة من الاستثمار التام لاكتشافاته الخاصة، ومن أن يكون له تابعون مباشرون، لقد اقتبسنا من محاضرة بادوين الافتتاحية التي ألقيت عام 1870. وتستطيع أن تتبين من هذا التاريخ الاستقلالية غير المألوفة في التفكير في أعمال بادوين المبكرة. لقد كانت هذه، بالنسبة للسانيين الدوليين، حقبة للمناقشة والقلق، حقبة كانت مواتية لإثارة الجرأة والأفكار الفردية وحق المبادرة، وعند نهاية عقد السبعينات في القرن التاسع عشر فقط، تمّ إنشاء مدرسة النحويين الجدد neogrammarian، في لايبزك، وأصبحت ذات هوية وقوة متينة. بدأ هذا التيار من التفكير يمارس، بصورة مبكرة، تأثيراً مهيمناً على التفكير اللغوي على مستوى دولي، ونجح في أن يبقى على هذا الوضع حتى زمن الحرب العالمية الأولى، وعلى

الرغم من أن بادوين لم يتكلم على نحو صارم مطلقاً، ليطابق نفسه مع مدرسة النحويين الجدد، فيجب أن نُقرَّ، مع ذلك، أن بادوين، مثل كل اللغويين في تلك الحقبة تقريباً، قد تأثر بهذه المدرسة، ونستطيع أن نجد لمحات لهذا التأثير في عمله، ربما تكون السمة الأكثر تميزاً لتفكير النحويين الجدد هي الاستبدال المستمر للقضايا السببية الصارمة بقضايا تعنى بالوسائل والغايات. إن أية محاولة، في تلك الحقبة لتعريف ظاهرة لغوية بموجب وظيفتها ستكون مدانة بوصفها بدعة لا يمكن قبولها. لقد تأمل بادوين الشاب علم الصوت الأنثولوجي، أو بتعبير آخر علم الصوت الوظيفي، الذي استبدل، في الأعمال المتأخرة لهذا العالم ووفقاً لروح العصر، بما دعاه علم الأصوات النفسي Psychophonetics. لم يكن هذا الفرع الجديد، في عملية تكونه، منصباً على وظيفة الأصوات، أو على الغايات التي تؤديها، وباختصار لم يلبث أن فهم هذا الفرع بموجب مشكلة العلاقة بين الصوت والمعنى، وفي حين تصور بادوين علم الصوت الأنثولوجي بمثابة جسر بين علم الصوت والنحو، حاول علم الصوت النفسي، حسب تفسيره الخاص، بناء جسر بين علم الصوت وعلم النفس. فيدرس علم الصوت إنتاج الأصوات اللغوية وسمعها audition ويتبنى علم الصوت النفسي مهمة تسليط الضوء على المحددات النفسية للنطق والسمع.

وإذا ما تجاهلنا أسلوب برنامج بادوين ومصطلحه، وإذا ما نظرنا، بدلاً من ذلك، إلى ماهية أعماله ومضمونها الفعلي في هذا الحقل، فنحن نستطيع أن نلاحظ، في الحقيقة، أن بادوين تعامل مع الأصوات اللغوية ليس بوصفه عالماً نفسياً وإنما بوصفه لغوياً.

وقد أدرك، بصورة صحيحة منذ البداية، أهمية التمييز differentiation فاجتذب إلى الضوء الجوهر التمييزي للأصوات وبتعبير آخر، الفونيم نفسه، فتأسس بحثه في الجانب الصوتي من اللغة، بصورة دقيقة، على مفهوم الفونيم. ومع ذلك فبينما كان مفكراً أصيلاً وبارعاً في اللسانيات، بقيت نظراته الفلسفية والنفسية ضمن إطار الأفكار الشائعة في عصره. وطالما أن كل ظاهرة كانت، في ذلك الوقت، بحاجة لأن تعرف لا بموجب وظيفتها، وإنما بموجب أصولها، حاول بادوين صياغة تصور نشوئي genetic للفونيم وفقاً للأيديولوجية المهيمنة وكيما يضفي المشروعية على مفهوم الفونيم شعر هو ذاته بأنه ملزم بالإجابة عن أسئلة معينة محيرة: أين يتموضع الفونيم؟ في أي ميدان من الواقع تمتد جذوره؟ لقد اعتقد أنه يستطيع أن يتعامل مع هذه المشاكلات، (بإسقاط الفونيم في عالم الصور الذهنية، وهذه في الحقيقة فكرة وظيفية خالصة، فكرة لغوية خالصة، فظن أنه نجح في اشتراط أسس مناسبة للفونيم في تعريفه بوصفه (معادلاً نفسياً للصوت). لقد كانت نزعة بادوين النفسانية psychologism تمويهاً، فقط، ساعدت على تسويغ دراساته الإبداعية في نظر معاصريه، وفي نظره هو أيضاً. بيد أن هذا التمويه حال دون إيجاد طَرِيقِهِ بين اكتشافاته العظيمة، ومن استخلاص تطبيقاته.

وما تعلمه الناس من عمل بادوين اتسم، لسوء الحظ، بهذه الطبيعة الغامضة، فعلى سبيل المثال، بذل اللغوي الروسي المعروف ليف سكيربا Lev v. Scerba، وهو واحد من أفضل تلاميذ بادوين، في كتابه عن صوائت اللغة الروسية (المنشور عام 1912)، والذي مثل نقطة مهمة في تطور مدرسة بادوين واللسانيات عموماً، بذل

اهتماماً وعناية مفصلة لمفهوم الفونيم، وحدده بوصفه (عنصراً أساسياً) في اللسانيات. فأبدى سكيربا، في تعريف للفونيم بهذه الطريقة، تشديداً أعظم من ذلك الذي أبداه بادوين على الجانب الوظيفي للفونيم، بيد إنه، في الوقت نفسه، ربط هذا المفهوم، بصورة أكثر ثباتاً حتى من أستاذه، بالاعتقادات القطعية dogmas النشوئية والآلية لعلم النفس التقليدي. حقاً أن الصفة الجوهرية للفونيم، عند سكيربا، هي قابليته على التمييز بين الكلمات، إلا أن هذا العالم قد أصر، في الوقت نفسه، على المعايير النفسية لتحديد الفونيمات. فالصوت والفونيم، بالنسبة له، ليسا جانبين للظاهرة الواحدة نفسها، بل هما ظاهرتان متماستان. فبدلاً من تناول الفونيم بوصفه الجانب الوظيفي للصوت، وتناول الصوت بوصفه قواماً للفونيم، ميز بين الصوت والفونيم، كون الصوت ظاهرة خارجية وموضوعية من جهة، وكون الفونيم ظاهرة ذاتية ونفسية من جهة أخرى. إن هذا التصور خاطأ. ولكي نقتنع بهذا، أي بخطأ سكيربا، يكفي أن نشير إلى كلامنا الداخلي، اللامتخارج.

نحن نكلم أنفسنا من دون إصدار، ومن دون سماع، أي صوت. فبدلاً من التلفظ أو السماع نتخيل أنفسنا على أننا نتلفظ أو نسمع. حيث لا تتكون كلمات كلامنا الداخلية من أصوات صادرة بل تتكون من صورها الاكوستيكية والحركية. فإذا تلفظ شخص روسي، في كلامه الداخلي، بصورة متخيلة الكلمتين (mel’ و mel) اللتين نوقشتا سابقاً، فإن الكلمة (mel) سوف تتضمن الصورة الأكوستيكية والحركية للصوت المفتوح (ɛ)، وسوف تتضمن الكلمة (mel’) صورة الصوت المغلق (e). إذن لا يمكن تفسير هوية الفونيم بمقابل تنوع الأصوات ـ وفي اللغة الروسية،

مثلاً، تكون هوية الفونيم (e) في علاقة بتنوعيّة: الصوت المفتوح (ɛ) والصوت المغلق (e) ـ بوصفها هوية لصورة نفسية في مقابل تنوع الأصوات الصادرة فعلياً. فما هو معنى هوية فونيم معين، هوية الفونيم (e) في اللغة الروسية مثلاً؟.

إن الاختلاف بين الصوت المغلق (e) والصوت المفتوح (ɛ) لا يؤثر في النظام الدلالي لهذه اللغة، لذا فإن هذا الاختلاف لا يساعد على التمييز بين الكلمات بل إن ما يساعد على التمييز بين الكلمات هو الخاصية الوسطى للصوت (e) سواء أكان مفتوحاً أم مغلقاً ـ في مقابل الصائت العالي (i) من الكلمة: (m'il) (عزيز) والصائت الواطيء (a) في الكلمة: (m'al) (متفتت).

يمكن إنشاء نظام للفونيمات في لغة معينة عبر تحليل وظائفية الأصوات، فقط، في تلك اللغة ـ وقد اختار سكيربا وبعض دارسي بادوين أن يعولوا على منهج مختلف، منهج الاستبطان النفسي، فقد احتكموا إلى الحدس اللغوي للذات المتكلمة. فإن الفونيم، من وجهة نظرهم، هو صورة اكوستيكية حركية بإمكان المتكلم نفسه، في موقع معين أن يحدده. حقاً إننا ندرك بصورة واعية جداً تلك العناصر للغة ما التي تكون ذات دور وظيفي مستقل أكثر من إدراكنا للعناصر التي تفتقر لهذه الوظيفة، بيد أن الحقيقة الأولية هي، بالضبط، هذه القيمة التمييزية لأي عنصر معين: بحيث يكون الإدراك الواعي به هو نتيجة لهذه القيمة. فمن المنطقي، إذن، أن نعتبر هذه الحقيقة الأولية بمثابة معيار تحليلي، أي تحليل القيمة التمييزية للعناصر بدلاً من تحليل الحقيقة الثانوية، وهي إدراكنا الواعي تقريباً بتلك العناصر، وسوف ينقلنا هذا المعيار من حقل اللسانيات إلى حقل علم النفس، بيد أن الخسارة الأعظم لهذا

المعيار تتمثل في أن المنطقة المتاخمة بين ما نحن على وعي به وبين ما ليس لنا وعي به هي منطقة متغيرة وغير محددة فيما يتعلق بكل شيء يعنى باللغة وعناصرها، فاللغة بالنسبة لنا، عادة، ليست غاية في ذاتها، وإنما هي مجرد وسيلة، وتظل عناصر اللغة، عادة، دون عتبة تفكيرنا الواعي. وكما قال الفلاسفة فإن النشاط اللغوي يأخذ بالشروع من دون معرفة ذاتية. وحتى إذا نجح متكلم معين، من دون تدريب خاص، في عزل بعض العناصر الوظيفية للغة، وبالتخصيص الفونيمات أو المقولات النحوية، grammatical categories فلن يكون في موقع لاكتشاف القوانين التي توصل أحدها بالآخر، أي نظام المقولات النحوية أو نظام الفونيمات. وكما نتوقع، أسّس سكيربا بحثه في الفونيمات على ما كان يعيه المتكلمون، فوجد نفسه مضطراً إلىٰ التخلي عن أية محاولة لتصنيف تلك الكيانات.

وعلى الرغم من هذه الغموضات كافة فإن الجزء المتين في مذهب بادوين، فكرة القيمة التمييزية للفونيمات، حاز القبول في اللسانيات. وفضلاً عن ذلك اجترح بعض لسانيي القرن التاسع عشر، باستقلال عن المدرسة التي ناقشناها، أفكاراً مشابهة. وينبغي أن أذكر، بشكل خاص، عالم اللهجات السويسري يوست فنتلير Jost Winteler الذي لم يغذِّ ـ في مونوغرافية لامعة عن اللهجة السويسرية ـ الالمانية، لإقليم (Glarus) نشر في 1876 ـ سيرَ دراسة اللهجات علمياً فحسب وأنما بيّن بوضوح، أيضاً، ضرورة عدم خلط نوعين متميزين من الاختلافات الصوتية: أي تلك التي تستخدم من لغة معينة لتمييز الاختلافات المعجمية والنحوية، وتلك المفتقرة لهذه الوظيفة. بيد أن كتاب فنتلير ظهر في نفس وقت

الأعمال المهمة الأولى التي نشرت مبادىء مدرسة النحويين الجدد، ولأن فكرته الأساسية ذهبت بعكس التيار السائد تماماً فقد ظلت غير معروفة بصورة كلية تماماً. لقد ميز عالما الصوت المشهوران، الانكليزي هنري سويت Henry Sweet وتابعه الدانماركي اوتو ياسبرسن Otto Jespersen، من حيث المبدأ بين الظواهر الصوتية ـ بين الظواهر المكتسبة قيمة دلالية والظواهر الخالية من تلك القيمة ـ إلا أنهما فشلا في استخلاص أية نتائج منهجية من هذا عن نظرية في اللغة ـ وفي بداية قرننا الحالي بدأ مفهوم الفونيم ـ الذي استهله العالمان البولنديان بادوين دي كورتني ونيكولاي كروزفسكي Nicolas Kruszewski وتلاميذهما الروس ـ بالتسلل إلى اللسانيات دولياً. فقد لبّىٰ هذا المفهوم كلاً من الحاجات النظرية والعملية. وبذلت، بطريقة علمية، محاولات لتحليل ووصف عدد اللغات المتزايد. بصورة متطرفة.

لقد أثارت ملاحظة المعطيات، باستمرار، السؤال الآتي: ما هي جوانب المادة الصوتية الأكثر جدارة بالتسجيل؟ وغني عن القول أنه من المستحيل تسجيل الحشد الهائل من التفصيلات الصوتية الدقيقة التي يمكن ملاحظتها. فكان من الضروري الاختيار، ولكن حسب أية معايير؟

استقبل مفهوم الفونيم بالترحاب من علماء اللغات الإفريقية، ومن المتخصصين في اللغات القوقازية المتعددة، Caucasian Languages ومن علماء اللغات الأمريكية Americanists ومن المستشرقين، كما أدرك اللغويون الفرنسيون، في بداية القرن الحالي، أهمية مفهوم الفونيم. فلاحظ انطوان مايية قبل الحرب العالمية الأولى، القيمة الفونيمية phonemis التي قدر لها أن تصبح

المشكلة المركزية لكل الدراسة اللغوية للأصوات. إذ نجد، في كتاب (محاضرات في اللسانيات العامة، الذي ألقاه سوسير خلال أعوامه الأخيرة عندما كان أستاذاً جامعياً والذي حرره ونشره تلميذاه، بعد ذلك ببضعة سنين، خليطاً غريباً استخلص من مراحل مختلفة من البحث في الأصوات، ومن النحويين الجدد إلى الحقبة الحديثة. لقد ذكر سوسير أن الشيء المهم حول كلمة ما ليس الصوت ذاته، وإنما تلك الاختلافات الفونيمية التي تتيح لهذه الكلمة أن تكون مميزة من الكلمات الأخرى، حيث أن تلك الاختلافات هي حوامل للمعنى ـ فقد وضع هذا الكتاب الصيغة الآتية، التي أصبحت بعد ذلك مشهورة: الفونيمات هي ـ قبل كل شيء آخر ـ كيانات متقابلة ونسبية وسلبية. وذهب سوسير إلى حد بعيد ليقرر أن نظام تلك الفونيمات المتميزة الواضحة ـ النظام الفونولوجي كما يدعوه ـ هو الحقيقة الوحيدة لعناية اللغوي في الميدان الصوتي. ومع ذلك يمكن أن يوجد، من جهة أخرى، في دروس سوسير ذاتها أيضاً أثر لنفسانية ساذجة مشابهة، بدقة، لنفسانية بادوين ـ وعندما ذهب سوسير إلى ما وراء عباراته الاستهلالية ويصل إلى المبادىء التي يجب أن تتأسس عليها الدراسة اللغوية للأصوات، لم يعن بالقيمة الوظيفية للأصوات، ولا حتى بالحدس اللغوي، الذي توسل به بادوين، (كأساس طبيعي) لتلك المبادىء وإنما عني (بالانطباع الذي يخلفه الصوت على الأذن). وعندما يصل إلى الدراسة العينية (للنظام الفونولوجي) يتخلى حتى عن المعيار السمعي ويفترض ـ ببساطة ـ أن هذا التحليل يمكن أن يوجه على أساس الفعل النطقي articulator act وبتعبير آخر تراجع سوسير إلى نقطة الانطلاق النموذجية لعلم

الصوت الحركي في مرحلته البدائية.

على أية حال ورغم التناقضات العديدة الموجودة في مذهب بادوين، فنحن مدينون له ولمدرسته بفكرة محورية تتعلق بالدراسة الوظيفية للأصوات، وهي فكرة الفونيم، وعلى الرغم من التناقضات العديدة في مذهب سوسير نحن مدينون له ولمدرسته بالفكرة المحورية الثانية المتعلقة بالدراسة الوظيفية للأصوات، وهي فكرة العلاقة بين الفونيمات، أي فكرة النظام الفونولوجي. لقد بين هذان اللغويان (بادوين وسوسير)، مرة، نقطة الانطلاق لدراسة العلاقة بين الأصوات والمعنى، وقد كانت هذه موضوعاً لاستخلاص كل تطبيقات هذا الفرع الجديد ولتطويره فعلياً، أي الدراسة المنهجية لأصوات لغة معينة من وجهة نظر وظائفها اللغوية. وقد تم تأسيس هذا الفرع الجديد، الذي يدعى الآن النظام الصوتي (أو، أحياناً علم دراسة الفونيمات (phonemics)، على يد كل من ادوارد سابير Edward Sapir وليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield في أمريكا من جهة، وعلى يد لغويي حلقة براغ اللسانيين الروس والتشيك الذين يعرفون في أدبيات علم اللغة بمدرسة براغ، من جهة أخرى. وقد افترضت هذه المجموعة في المؤتمر الدولي الأول، الذي عقد في Hague عام 1928 بضعة قواعد أو أطروحات منهجية تبناها ذلك المؤتمر. وطبقاً لتلك الأطروحات فإن كل الوصف العلمي للنظام الصوتي للغة ما يجب أن يتضمن، قبل كل شيء آخر، الخصائص البارزة لنظامها الفونولوجي، أي الخصائص لخزين تلك اللغة الخاص، بمعنى الاختلافات بين الصور الاكوستيكية ـ الحركية الوثيقة الصلة بالدلالة). (لاحظ هنا آثار المصطلحية الشبه نفسانية لسوسير وبادوين).

وتتواصل تلك الأطروحات على المطالبة بتخصص مفصل جداً بتلك الاختلافات الدلالية، أي البحث عن القوانين العامة التي تتحكم بالعلاقات التي بين تلك الاختلافات، ودراسة التغيرات الوظيفية في النظام الفونولوجي التي تؤسسها. فتطور البحث الفونولوجي، خلال عقد الأربعينات من القرن العشرين أفقياً وعمودياً في كافة البلدان التي عرفت انتشاراً للسانيات فيها. فتم توجيه هذا في حقول متنوعة سواء في اللسانيات التزامنية والتاريخية والجغرافية، أو في دراسة ما قبل تاريخ اللغات، أو في علم أمراض اللغة، أو في لغة الطفل، أو في اللغة الشعرية، أو في لغة النصوص المكتوبة... إلخ.

ولغزارة هذا البحث سنستمر بالتساؤل: ما الذي نعرفه الآن حول العلاقة بين الصوت والمعنى؟ وسنحاول تحليل هذه العلاقة.

حقاً «إن بعض العلماء أثار ـ خلال عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر وبطريقة تمهيدية ـ مشكلة العلاقة بين الصوت والمعنى، مشكلة الأصوات الفعالة في خدمة اللغة. بيد أنه بعد الحرب العالمية الأولى فقط، بدأت اللسانيات ـ حقيقة ـ بالدراسة المنظمة والشاملة للأصوات من وجهة نظر وظائفها في اللغة، وقد أصبحت هذه الدراسة فرعاً مميزاً ضمن اللسانيات، وفي الحقيقة، ومع تأسيس هذا الفرع الجديد فقط، قدّمت دراسة الأصوات ضمن علم اللغة، ضمن اللسانيات بالمعنى الدقيق للمصطلح، لأن دراسة المادة الصوتية في ذاتها ـ أي دراسة الأصوات من وجهة نظر آلية،

واكوستيكية ومن دون اعتبار للوظائف التي تنجزها في التواصل ـ تقع خارج حقل اللسانيات. ويمكن لمثل هذا البحث الصوتي أن يزودنا بمعطيات قيمة عن المادة الصوتية، ولكنه لا يستطيع أن يخبرنا عن كيفية طرح هذه المادة لكي تستخدمها اللغة، وكيف تُكَيِّفُ اللغة هذه المادة الصرفة لأغراضها الخاصة. إن علم الصوت phonetics يقع خارج اللسانيات، تماماً مثلما تقع كيمياء الألوان ـ بتعبير دقيق ـ خارج نظرية فن الرسم. ومن ناحية أخرى، فإن دراسة استخدام الأصوات في اللغة (بكلمات أخرى، دراسة استخدام الأصوات بوصفها إشارات لفظية) هي الجزء المتمّم للسانيات، تماماً مثلما أن دراسة استخدام الألوان ـ بوصفها

إشارات تصويرية ـ هي جزء من نظرية الفن التشكيلي figurative ولا سيما نظرية فن الرسم.

سميت الدراسة اللغوية للأصوات ـ دراسة الأصوات في ضوء العمل الذي تنجزه في اللغة ـ بـ : النظام الصوتي phonology. وفي القرن التاسع عشر، كان المصطلح «النظام الصوتي phonology» غالباً ما يستخدم ـ ببساطة كمرادف لـ «علم الصوت phonetics»، بيد أن المصطلح الثاني هو الذي انتشر ـ حقاً ـ في كثير من الأقطار. وعلى سبيل المثال، فإن ميشيل بريل Michel Breal ـ سلف مايبه Meillet في الكوليدج دي فرانس ـ أدان مصطلح «النظام الصوتي phonology» لأن هذا المصطلح بدا له مرتبطاً ـ إلى حد بعيد جداً بالكلمة الإغريقية phonos (القتل) وهكذا استحضر في ذهنه صورة علم القتل Science of homicide!

لقد استخدم فردناند دي سوسير Ferdinand de Saussure هذين المصطلحين ليعين ـ من جهة أولى ـ وصف الموارد الصوتية سواء أكانت هذه الموارد للغة معينة أم للغة بشكل عام، ويعين ـ من جهة البحث النشوئي الخالص ـ دراسة التغيرات في أصوات اللغة.

وكما ذكرنا سابقاً وبوقت مبكر أن «محاضرات في اللسانيات العامة» [كتاب سوسير] تتضمن تناقضات خطيرة في طريقتها في فهم الموارد الصوتية ووصفها.

وتدل هذه التناقضات على موقف متوسط ـ لمذهب سوسير ـ بين اتجاهين شائعين متعاقبين، هما التجريبية الساذجة naive empiricism من جهة أولى، والنزعة البنيوية للعلم الحديث من جهة ثانية. وفي الجزء المخصص [من كتاب سوسير] من المحاضرات

عن النظام الصوتي Course on Phonology، يبالغ المحرران في هذه التناقضات، المحرران اللذان عبّرا فيما بعد عن أسفهما على تجميعهما معاً ملاحظات سوسير في النظام الصوتي بطريقة ميكانيكية، لأن ما جمعاه ـ في الحقيقة ـ مستمد من مراحل مختلفة تماماً لعمله العلمي، وعلى سبيل المثال، نحن نجد ـ في الفصل السابع من المدخل ـ تطابقاً مفرطاً للنظام الصوتي مع فسلجة الأصوات، ومع ذلك يؤكد سوسير ـ بعد سطور قليلة ـ أن «ما هو مهم في التحليل» ليس هو «حركات الجهاز الصوتي التي تكون ضرورية لإنتاج كل صورة اكوستيكية»، ولكن المهم هو عملية التقابلات التي تطرح لتعمل اللغة بوساطتها. ونحن نقرأ فيما بعد: «ما هو المهم في الكلمة» «ليس هو الصوت في ذاته، بل الاختلافات ـ الصوتية التي تسمح لهذه الكلمة لكي تكون متميزة من جميع الكلمات الأخرى، ونظراً لهذه الاختلافات تكون حاملة للمعنى». لقد كانت هذه الاختلافات الجانب الدلالي للنظام الصوتي ـ الأصوات متصورة بوصفها دوالاً ـ الذي شدد عليه اتجاه سوسير بحق.

إن كتاب ألبرت سيشهاي Albert Sechehaye (برنامج ومناهج للسانيات النظرية «1908») (programme and methods of theoretical Linguistics واحد من الكتب الأولى ـ والأكثر تميزاً ـ التي نتجت عن مذهب سوسير حيث يؤكد بوضوح «إن النظرة الخاطئة التي نقاتل ضدها تستند إلى الخلط بين شيئين مختلفين جداً: علم الصوت بوصفه ظاهرة فيزيائية وفسلجية، والنظام الصوتي أو دراسة الأصوات في نظام اللغة». إن نقطة البداية المناسبة هي الرمز، وليس الشيء المهم فيه هو خاصيته الجوهرية، بل علاقاته مع

الرموز الأخرى كافة، وتلك السمات التي تتيح للرمز ـ في الوقت ذاته ـ أن يكون متميزاً من أي شيء يختلف عنه، وأن يكون مكافئاً لأي شيء يتطابق معه نحوياً. يجب أن تكون سماته المادية بهذا الشكل لجعل هذه العملية المزدوجة ممكنة. ويجب أن يكون قابلاً للتحليل إلى عناصر فونولوجية بخصائص محددة جيداً، ولكي تكون هذ الخصائص محددة جيداً، يجب أن توجد كأفكار، كالرموز نفسها، وليس كأفعال مجسدة ومؤقتة ولن يكون ملائماً لأفكار الأصوات هذه أن تكون كثيرة جداً في عددها، ومتنوعة من كلمة إلى أخرى. إن كل لغة تفترض مقدماً نظاماً فونولوجياً، أي مجموعة من أفكار الصوت («أفكار أو إذا فضّل أحد ما تمثيلات الأصوات» representations) يضيف سيشهاي (تمثيلات الأصوات) لكي يجعل مصطلحيته ـ إن لم يكن تصوره ـ أقل غرابة. إن وجود هذا النظام هو عملية نحوية لنظام معين، غير أنها متشابهة في كثير من الوجوه مع جميع العمليات الأخرى. وفي التحليل الأخير، فإن هذا النظام هو حامل التفكير كله في اللغة، لأن الرموز توجد بمساعدته فقط، وتمتلك السمات المعينة التي لها. وهو كذلك يؤلف شكلاً form لأن «النظام الفونولوجي يمكن أن يكون متمثلاً بطريقة جبرية، إعادة ثلاثين أو خمسين أو مائة عنصر حيث ينظمها في أية لغة معينة بوساطة رموز عامة عديدة حيث يعين هويتها الفردية وليس خواصها المادية». ومع ذلك، فهو يسلّم «بأننا بعيدون ـ حتى الآن ـ عن حيازة أساس أكثر شمولية في معرفة الظواهر الفونولوجية»، أن أطروحة سيشهاي تمثل ـ اليوم وبوضوح ـ المنشأ وتحدّد ماهية الفرع الجديد، وتعمده بالنظام الصوتي، الاسم الذي تُبِنِّيَ سريعاً ليكون واسع الاستعمال. وعلى

مستوى مرحلة معينة، كان استعمالنا الخاص للمصطلح «علم الصوت phonetics» يتوافق ـ كذلك ـ مع المصطلح نفسه في الموروث السوسيري. نحن نعتقد ـ على نحو لائق ومعبر ـ بأن علم الصوت بحث في أصوات اللغة بتجريدها من وظائفها اللغوية.

والآن، ما الذي يميز وجهة النظر الصوتية phonetic طبقاً لسوسير؟ إن ما يميزها المبدأ القائل بأن كل شيء صوتي هو غير دلالي.

فنحن لا نشارك سوسير في فكرته المتصورة سلفاً في أن التحويل الصوتي ليس له تأثير في القيم اللغوية للأصوات. إن تغيرات الأصوات ـ حسب سوسير ـ مستترة وتصادفية و «مخالفة لنظام اللغة». بيد أن الملاحظة الدقيقة ترينا ـ على العكس ـ إن التغيرات لا يمكن أن تفهم إلاّ في علاقة مع النظام الفونولوجي الذي يخضعها. وبناء على ذلك عدّ نظام الأصوات بوصفه قيماً لغوية يمكن أن تدرس في تحولها على وجه الضبط، وفي حالتها المعطاة إضافة إلى ذلك، ويتضمن النظام الصوتي phonology الدراسة التاريخية للفونيمات phonemes.

وهكذا فإن التمييز بين النظام الصوتي phonology وعلم الصوت phonetics ليس متشابهاً ـ على الإطلاق ـ مع التمييز بين الوصف description والتاريخ.

إن السبب من وراء محاولتي توضيح الصلات بين النظام الصوتي الحديث وبين نظرات ومصطلحية المدرسة السوسيرية هو أنه غالباً ما يقرر بصورة غير صحيحة أن استخدامنا للمصطلح (النظام الصوتي) ليس له شيء مشترك مع مصطلح موروث مدرسة جينيف.

إن البحث الفونولوجي ـ الوصفي إضافة إلى التاريخي، والنظري إضافة إلى التطبيقي ـ حقق تقدماً سريعاً خلال الخمسة عشر عاماً أو العشرين عاماً الأخيرة.

وليس من السهل على المرء أن يجد طريقة وسط هذا البحث كلّه. ونحن لا نمتلك حتى ببليوغرافيا bibliography تبدو كشيء كامل. إن الدراسات الفونولوجية مبعثرة جداً. ويكفي أن نضع اللغات في قائمة بحيث تكون مكتوبة لتعطي انطباعاً عن تنوعها العظيم: إنها تكتب بالفرنسية والإيطالية والاسبانية والرومانية والانجليزية، واللغات الاسكندينافية، الالمانية والهولندية، والروسية والأوكرانية والتشيكية والسلوفاكية والبولندية والصربية ـ الكرواتية والبلغارية، الليتوانية واللاتفيانية، الهنغارية، الفنلندية والاستونية، ودزينات من الدراسات الفونولوجية نشرت ـ كذلك ـ باليابانية. وعند نهاية عقد الأربعينات من القرن العشرين، وصل النظام الصوتي phonology مرحلة إنتاج الكتيبات، ولكن الأحداث العالمية اعترضت هذا التطور. لقد كرّس اللغوي الحديث والعظيم نيكولاي تروبتسكوي Nicolas Trubetzkoy (1890 ـ 1938) السنوات العشر الأخيرة من حياته تقريباً للبحث الفونولوجي وحده. ومن بين سلسلة الاكتشافات اللامعة، فنحن ندين له ولا سيما في المحاولة الأولى في التصنيف الفونولوجي للأصوات الصائتة vowels، وبالتالي نمذجة typology الأنظمة الصوتية للعالم كلّه. وهذه اكتشافات بعيدة المدى جداً، ومن المناسب تماماً مقارنة هذه الاكتشافات مع الجدول الدوري periodic table المشهور للعناصر الكيميائية الذي أسسه منديلييف Mendele'eff. لقد كان تروبتسكوي ـ الذي تعلم في جامعة فيينا ـ مؤثراً في البحث في

النظام الصوتي العام وعلى نطاق واسع، ولكن احتلال النازية للنمسا عجّل بالموت السريع لهذا العالم، وكتابه المطبوع بعد وفاته «المفاهيم الأساسية للنظام الصوتي» الذي نشر عام 1939 كمجلد سابع لـ «أعمال حلقة براغ اللغوية» يتضمن الجزء الأول فقط من الجزأين اللذين كان في النية تأليفهما وحتى المجلد الأول هذا لم يكمله المؤلف. وقد نشر كذلك نيكولاي فان فجك Nicolas vanwijk اللغوي في جامعة ليدن، في عام 1939 الكتيب الشامل والوحيد في النظام الصوتي، ولكن هذا الكتاب ـ الذي كتب باللغة الهولندية وسمّي بـ : النظام الصوتي phonology كان مقبولاً من عدد محدود من القراء، ولم تكن الطبعة الجديدة لهذا العمل ـ الذي أمل المؤلف أن ينشره بلغة واسعة الانتشار جداً ـ كاملة بسبب موت المؤلف في عام 1941 في هولندا المحتلة. إن الإسهامات المتعددة في النظام الصوتي والتي قدمها لغويون من أقطار مختلفة، يمكن أن توجد ـ بصورة خاصة في «أعمال حلقة براغ اللغوية» من المجلد الأول إلى المجلد الثامن (1929 ـ 1939). وفي أميركا بدأ البحث الفونولوجي بداية جيدة مع أعمال ادوارد سابير E. sapir، الذي توفي سريعاً عام 1939 وكان خسارة باهظة للعلم في العالم، ومع أعمال ليونارد بلومفيلد Bloomfield الأستاذ البارز في اللسانيات الأميركية المعاصرة. وأود أن ألفت انتباهك بشكل خاص إلى الفصول الفونولوجية لبلومفيلد في عمله المهم: «اللغة»، الذي نشر في نيويورك عام 1933، وإلى الدراسة اللامعة لسابير «النماذج الصوتية في اللغة» التي ظهرت عام 1925 في المجلد الأول من المجلة الممتازة «اللغة»، مجلة الرابطة اللغوية في أميركا. واستمرت هذه المجلة تنشر الإسهامات المهمة في البحث الفونولوجي.

كيف طرحت إذن ـ في ضوء كل هذه الدراسات المختلفة والمتعددة الأشكال ـ المشكلة الرئيسة للنظام الصوتي، مشكلة الفونيم phoneme، أي مشكلة الأصوات بوصفها دوالاً؟

من المؤكد أنها القيمة اللغوية التي أتت ـ بحق ـ لتحتل المكان المركزي في التعريف الحديث للفونيم. وهي ليست أسسها النفسية ـ الصوتية psychophonetic التي تحدِّد الفونيم، بل المهمات التي تؤديها في اللغة. وينتج مباشرة عن هذا التعريف اللغوي الصارم، إن امرءاً سيتوقع ـ على نحو طبيعي ـ أن يجد ـ قبل كل شيء آخر ـ تحليلاً للبنية الداخلية للفونيم في هذه الأعمال الحديثة. غير أن هذا التوقع لم يحدث. فالتحليل البنيوي للفونيم ينتظر ـ حتى الآن ـ تحقيقه، وبدلاً من تحقيقه، فإن ما نجده ـ علاوة على ذلك ـ في أغلبية هذه الدراسات هو مناقشة محمومة تتعلق بطبيعة وجوده. وقد قدم أحد هذه الأعمال اللغوي البولندي فيتولد دوروسزفسكيWitold Doroszwski تحت عنوان بليغ: «حول الفونيم Around the phoneme»، وبشكل عام، ينشغل القارىء دائماً بين المناقشات المعنية بالفونيم أكثر مما يدخل مباشرة إلى بنية الفونيم الداخلية ذاتها، وما زال أرث علم الصوت النفسي، على الرغم من أنه لم يستنفد برمته، نشطاً، وعلى الرغم من أنه أقر بأن الفونيم هو ظاهرة لغوية تحدد بموجب وظيفتها، فإنه ما زال يسأل بسذاجة وعناد:

ولكن أين ـ إذن ـ تتموضع هذه الظاهرة اللغوية؟

إن الناس يواصلون محاولة اكتشاف ما يطابق الفونيم في أذهان المتكلمين، وعلى الرغم من غرابة هذا، فإن اللغويين الذين يدرسون الفونيم، يميلون ـ بشكل خاص ـ إلى مناقشة طبيعة وجوده.

وبذلك، فإنهم يعنون بأنفسهم بمشكلة يجب أن يوجد ـ بوضوح ـ حلّها في مكان آخر غير اللسانيات.

إن المشكلة الأنطولوجية ontological لماهية شكل الحقيقة المتخفية خلف مفهوم الفونيم هي ـ في الحقيقة ـ ليست محددة بمفهوم الفونيم على الإطلاق إنما هي ـ فعلياً ـ مثال واحد معين لسؤال أكثر عمومية:

ما هو نوع الحقيقة المنسوبة إلى القيم اللغوية أو حتى إلى القيم السيميوطيقية بشكل عام؟

لنتأمل، على سبيل المثال، العناصر النحوية الأصغر (سواء أكانت جذوراً أو لواحق بسيطة simple suffixes أو بوادىء prefixes)، التي عرفت في اللسانيات الحديثة بـ : «المورفيمات morphemes» بعد المصطلح الذي اجترحه بادوين دي كورتني.

والآن، إذا تحتم علينا أن نجد في الحقيقة النفسية كينونة مورفيم ما، والمورفيمات بشكل عام، أو كينونة كلمة ما، والكلمات بشكل عام، أو جزء من خطاب ما، والأجزاء الاستطرادية بشكل عام، أو كينونة قاعدة بنائية ما، والقواعد البنائية بشكل عام، وأخيراً، كينونة لغة معينة، واللغة بشكل عام، وباختصار، إذا تحتم علينا أن نجد في علم النفس كينونة القيم اللغوية وأنظمتها، فإننا نكون ـ في الوقت ذاته ـ مجبرين تماماً على أن نقبل الأساس النفسي الخالص للفونيم والقيمة الفونولوجية كلية. بيد أنه إذا ما تأملنا هذه القيم اللغوية كافة على أنها قيم اجتماعية ـ بوصفها نتاجات ثقافة ما ـ حينئذ يخضع الفونيم ـ آلياً ـ إلى هذا النوع نفسه من التفسير. وأخيراً، فإن العالم الذي يتناول مفهوم القيمة بوصفه تقليداً ميثودولوجياً methodological، مثل رواية ما، أو

ـ ببساطة ـ كوسيلة توجيهية، (أي أن يكون افتراضاً سابقاً يمثل شرطاً ضرورياً لتحليل علمي) والذي لا ينسب (أي العالم) حقيقة موضوعية لمثال القيمة هذا، إن مثل هذا العالم سيتعامل ـ كذلك ـ مع مفهوم الفونيم بالطريقة نفسها.

إن مناقشة اللغويين حول ماهية الفونيم كان ـ باستثناءات قليلة جداً ـ مجرد تكرار لنزاعات فلسفية مشهورة بين الاسميين nominalists والواقعيين realists وبين متبني المذهب النفسي psychologism ومتبني المذهب اللانفسي antipsychologism إلخ...، وكانت ـ فوق ذلك ـ موجهة بوسائل غيرملائمة. فعلى سبيل المثال، كان من غير الضروري مناقشة مشروعية التصور النفسي للفونيم مرة أخرى، بعد الحملة المشهورة لهوسيرل Husserl الظاهراتي وتابعيه ضد تطبيق المذهب النفسي القديم لنظرية المعنى. ولقد عكست ـ بصورة أساسية ـ جهود بعض اللغويين في رفض حقيقة الفونيمات الموضوعية ـ مع أنها كانت بطريقة لا واعية ومشوهة ـ الأفكار المتناقضة للفيلسوف بنثام Bentham وتابعيه في ضرورة «كيانات خيالية fictitious entities» وتبدو لي تلك الحملات ـ التي قام بها اللغويون في حقول غريبة عنهم ـ غير ضرورية أو خطرة. خطرة ـ بصورة غير مناسبة ـ في كل تلك الحالات المألوفة التي يأخذ فيها المتخصص ـ الذي يكون كفوءاً تماماً في حقله الخاص ـ فرصة في فرع مختلف من دون أن يكون متآلفاً ـ بكفاية ـ مع مناهج الفرع ومبادئه. وقد حدثت هذه الحالة ـ على سبيل المثال ـ مع اللغوي الفريد شميت Alfred Schmitt الذي حاول التخلص من مفهوم الفونيم بحجج شبه نفسية quasi-psychological من دون أن يكون متآلفاً بنفسه مع القضايا النفسية.

لقد اعتقد شميت أن بإمكانه إنكار وجود الفونيم على أساس أن انتباه المتكلمين في أغلبية الحالات غير مركز على الفونيمات، وعلى أساس أن الفونيمات ـ في أغلبية الحالات ـ لا تؤدي وظيفة بصورة منعزلة. إن المؤلف يتوسل بعلم النفس ولا يدرك أن هذا العلم يبين لنا ـ بدقة ـ وجود العناصر المتعددة التي تؤدي وظيفة من دون أن تكون ـ بالضرورة ـ موضوعات للتأمل الواعي، وحتى من دون أن تكون من الممكن ـ فعلياً ـ عزلها عن سياقاتها الموجودة فيها.

يعتقد شميت بأن الكلمة هي العنصر اللغوي الأصغر بقدر ما يتعلق الأمر بالمتكلمين بيد أنه في الحالات حيث يكون فيها الأمر كذلك، يكون هذا ـ في الحقيقة ـ علامة على حالة مرضية واضحة. إن الكلمة هي الظاهرة اللغوية الأصغر بالنسبة لشخص يعاني من نوع من الحبسة Aphasia التي تدعى الحبسة الأتاكتكية atactic aphasia. وإن شخصاً مصاباً بهذا المرض يحتفظ بمعجمه الاعتيادي ويبقى ذا قدرة على تلفظه بصورة خالية من الخطأ، ولكنه، بغض النظر عن تلك الكلمات التي تآلفَ معها، لا يعود قادراً على استخدام الفونيمات والمقاطع الفعلية التي تتكون منها تلك الكلمات، فهو يستطيع أن يقول «كتاب»، ولكن إذا ما طلب منه أن يلفظ «تكاب» أو «بتاك» فإنه لا يستطيع فعل ذلك. وبمقابل شخص بهذا المرض، وبمقابل فكرة شميث عن الذات المتكلمة الاعتيادية، لا تتعامل الذات الحقيقية الاعتيادية مع الكلمة على أنها كلّ مجسّم وغير قابل للتجزئة، أي أنه لا يتعامل مع كل مفتقر لتشريح داخلي.

وبناء على ذلك، فإن الشخص الاعتيادي ـ إذا ساهم، مثلاً، في

خلق لغة عامية غامضة ـ يستطيع تغيير كلمة «cabaret» إلى «bareca» أو كلمة «aprince» إلى «inspra» إلخ.... وللسبب ذاته سيكون قادراً على فهم، أو حتى إبداع «السپونرية spoonerism» أي إنتاج كلمات بالتلاعب بتغيير مواقع الفونيمات. وهنا بعض الأمثلة لهذا التلاعب ـ الذي أدين به لكلود ليفي شتراوس ـ الذي تلاعب ـ في الوقت ذاته ـ بالفونيمات، ويوضح لنا هذا التلاعب تشريح الفونيم:

أحمق شاحب ـ قدر قذر: un sot pâle - un pot sale

tendez votre verre-vendez votre terre:

قدّم كأسك ـ بع أرضك

مات جوعاً ـ قوة السيد mort dr faim - fort de main

وكما قلنا في محاضرة سابقة أن (r) و (L) هما فونيمان بالنسبة لمتكلم فرنسي في حين يكونان مجرد تنويعين لفونيم مفرد بالنسبة للشخص الكوري Korean. فيظهر هذا الفونيم في بداية المقطع بشكل (r) وفي نهاية بشكل (L). فقد حصلنا على السپونرية في الجملتين التاليتين:

يمجد الملوك ـ ينتهك القوانين: Louez les rois-rouez les lois

بتغيير موقع الفونيمين الرخيمين (r) و (L)، ولو أخذنا بنظر الاعتبار التقاليد الصوتية لدى الشخص الكوري، فإن ما نحصل عليه عبر تغيير موقع الفونيمين الرخيمين لن يكون عملية سپونرية في مثال كوري مشابه، ولن يكون ثمة تغيير في المعنى، وسيكون مجرد سوء تلفظ لدى الشخص الكوري.

وفيما يتصل بالتشريح النسبي للفونيم، توجد ـ هنا ـ حجة

أخرى ضد النظرة التي ترى أن الكلمة هي العنصر اللغوي الأصغر. تخيّل أن متكلماً «فرنسياً» ـ غير متآلف مع العامية ـ يسمع فجأة ولأول مرّة كلمة «mek رجل» ربما يتساءل عما تعنيه هذه الكلمة، ولكنه سيكون مستعداً «لأن يوافق على أنها كلمة فرنسية، لأن جميع فونيماتها والقواعد المتحكمة في تأليف هذه الفونيمات مألوفة في اللغة الفرنسية. إن كلمة «mek» الأحادية المقطع monosyllable تحتوي على ثلاثة فونيمات وهناك ـ في اللغة الفرنسية ـ عدد من الكلمات التي تختلف عن هذه الكلمة من ناحية فونيماتها الأولى فقط، مثل: ـ «bec, sec, cheque» أو من ناحية فونيماتها الثواني مثل: «moque, macque, manque»، أو من ناحية فونيماتها الثوالث، مثل: (mer, messe, meche). إن المتكلم الفرنسي الذي نحن بصدده، لا يعرف ما تعنيه كلمة «mec» ولكنه يعرف أن هذه الكلمة مختلفة عن تلك الكلمات الأخرى التي ذكرناها، وبناء على ذلك، يمكن ـ على الأرجح ـ أن يكون من المسلّم به أن لها معنى مختلفاً» عن تلك الكلمات. ولكن، تخيّل أن هذا المتكلم الفرنسي سمع فجأة وسط الكلمات المتآلف معها، الكلمة الأحادية المقطع التي تختلف عن «mec, mer» إلخ..، في أن فونيمها الأخير هو فونيم انسدادي حنكي أمامي مهموس، أو هو فونيم احتكاكي طبقي كما في اللفظة التشيكية «mech: طحلب». فكيف سيؤدي المتكلم الفرنسي هذه الأشكال؟

وسواء عليه إذا ما ميّز الخاصة الغريبة للصامت الأخير وظن هذه الكلمات كلمات غريبة أم لم يعر انتباهاً للخاصية المميزة للصوت الأخير وشبّهه ـ على نحو خاطىء ـ بأحد الفونيمات الفرنسية، فسوف يشبه مثلاً الفونيم الطبقي الاحتكاكي (في mech) بالفونيم

الطبقي الانسدادي أو بالفونيم الاحتكاكي التضييقي، ويؤدي الكلمة وكأنها (mec) أو «meche» على التوالي. وهكذا نرى أن فونيمات الكلمة ـ حتى حينما تكون الكلمة غير مألوفة ـ تمكننا من تعيينها في المكان الحقيقي في لغتنا، كما تمكننا من تمييز الكلمات المختلفة، أي تمييز تلك التي تختلف في المعنى.

دعونا نثر السؤال الذي ينسى في أغلب الأحيان والذي يتعلق بميزة الفونيم: بأي طريقة يميز الفونيم من القيم اللغوية الأخرى؟

نستطيع أن نقرر ـ مباشرة ـ أن الفونيم يحتلّ مكاناً مختلفاً تماماً ـ عن كل القيم اللغوية الأخرى، ومختلفاً عن القيم الأخرى في عالم الإشارات عموماً. إن أي جملة وعبارة* وتعبيرة** Clause and phrase وكلمة ومورفيم morpheme تمنح معناها الخاص بها، ويمكن أن يكون هذا المعنى ـ بطبيعة الحال ـ عامّاً جداً ومجزءاً وضمنياً جداً، أي أنه يكون بحاجة إلى سياقه وموضعه كيما يكون مميزاً وكاملاً...

وربما يقول مواطن برليني بطريقة مقتضبة «mit مع» أو «ohne من دون» وسوف تعنى هذه الأقوال المقتضبة في المقهى: «أجلب لي القهوة مع قشدة» أو «من دون قشده»، غير أنه إذا قال هذه الأقوال المقتضبة في حانة فسوف تعني: «أجلب لي كأساً من الجعة مع عصارة توت العلّيق» أو «من دون عصارة توت العلّيق».

إن المعنى العام للقولين ـ حضور أو غياب بعض تكملات معينة

---

* عبارة clause: مجموعة كلمات من دون فعل: (المترجم).

** تعبيرة phrase: مجموعة كلمات فيها فعل. (المترجم).

ـ يبقى ـ بالقوة ذاتها في كلتا الحالتين. ويستخدم رودولف كارناب Rudolph Carnap في كتابه «البناء المنطقي للغة» (1937) جملة مركبة من كلمات مخترعة «pirots karulize elatically» ونحن لا نعرف ما تكون هذه «pirots» الملغزة، ولكننا نعرف أن هناك كثيراً جداً منها، وإن هذا التعدد غير محدود وأنها فعالة، وإن وصفاً ما أو وصفاً آخر لفعاليتها المبهمة يكون معطئ في الجملة من حيث أننا نستطيع أن نشتق بعض الجمل الأخرى مثل: «Apirot karulizes or karulized bėfore» نحن نعرف القيمة النحوية ـ وبذلك ـ نعرف الوظيفة التركيبية لهذه الكلمات الجوفاء nonsense لأننا متآلفين مع تصريفاتها inflexions.

لنحاول أن نحلل مثالاً عكسياً، حيث نكون متآلفين مع جذور الكلمات، ولكن، غير قادرين على تفسير اللواحق suffixes. ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ أزواجاً من الكلمات الروسية حيث تكون الجذور مستعارة من المعجمية vocabulary الغربية:

interes-y student-a:

interes-naja student-ka:

interest-ujtes student-ami: (صيغة آمرية)

إن هؤلاء الذين لا يفهمون اللغة الروسية سيدركون هوية القيمة المعجمية للأزواج الثلاثة من الكلمات، وسيدركون مجالين للمعنى ـ مجال interest ومجال student ـ في الوقت الذي تغيب فيه القيم النحوية المختلفة لهذه الأصناف الثلاثة من الكلمات. وحتى عندما نسمع ـ في خطاب مؤلف من كلمات نعرفها ـ كلمة ما

غير متآلفين معها بصورة كاملة، فإننا لا نعدّ مقدماً هذه الكلمة معدومة المعنى. لقد كانت الكلمة ـ دائماً ـ بالنسبة لنا عنصراً دلالياً خاصّاً، وفي الحالة الراهنة، فإن مدلول signified هذا العنصر الدلالي الخاص أصبح غير ذي قيمة وفي رواية كنوت هامسون Knut Hamsun «الجوع Hunger» يخترع البطل الكلمة «kuboa» ويقول البطل نفسه «لي الحق في أن أمنحها أيّ معنى مناسب أرتئيه: إنني لا أعرف ـ حتى الآن ـ ما تعنيه هذه الكلمة». وبطريقة أخرى، فإنه حالما تدرك مجموعة معينة من الفونيمات كيما تكون كلمة، فإنها تتطلع إلى معنى لذاتها. وبكلمات أخرى، فإنها عنصر دلالي كامن. الدال: kuboa، والمدلول: عنصر دلالي لمضمون غير معروف. وعلى نحو مشابه، الدال: pirots، والمدلول: اسم جمع لمضمون دلالي غير معروف. ولو أخذنا بنظر الاعتبار أن الكلمة تقدم عنصراً دلالياً، فإن كل وسيلة صوتية تقوم بتبيين حدود الكلمات أو عدد الكلمات في وحدة نحوية ما، تبين في ذاتها حدود العناصر الدلالية أو عددها. وهكذا فإن حدّ الوسيلة الصوتية في ذاته يقتضي ضمناً قيمة دلالية ما، وعلى سبيل المثال، فإن الصائت الابتدائي لكلمة ما في اللغة الالمانية يستهل بوساطة توقف مزماري مؤقت glottal catch ـ Achtung ـ ولا يحدث هذا التوقف المزماري المؤقت إلاّ في بداية الكلمات. وبالتالي، يؤدي التوقف المزماري المؤقت وظيفة مؤشر على بداية كلمة ما في اللغة الالمانية. وقد ذكرنا آنفاً أن النبر stress يقع ـ دائماً ـ على المقطع الأول للكلمة في اللغة التشيكية Czech، وهكذا يبين هذا النبر بداية الكلمة، أي بداية العنصر الدلالي. وهكذا يحوز ـ في ذاته ـ المعنى التام والثابت. الدال: نبر والمدلول بداية العنصر

الدلالي. إن الجملة ـ أكثر من الكلمة ـ هي وحدة المعنى لنظام أعلى.

إن أية وسيلة صوتية تقوم بتعيين الجملة، أو تقسيمها، أو توضيح تراتبية hierarchy مكوناتها، هي إشارة مستقلة تماماً. وهكذا يبين الإيقاع cadence ـ وقوع التنغيم intonation في نهاية الجملة ـ نهاية وحدة المعنى التي تقدمها الجملة. ويبين النبر ـ في وظيفة الثانوية ـ أهمية الكلمة المنبورة في التفوّه مباشرة. ويمكن أن نكون عاجزين عن فهم الكلمات في جملة ما، ومع ذلك نحن نعرف أن الإيقاع يدل على نهايته، ونعرف أن عدد النبور مساوٍ لعدد الكلمات في الجملة، ونعرف أن النبر الأقوى يبين الكلمة الأكثر أهمية، حيث أن المدلول يقوم كنقطة انطلاق للجملة.

تقوم العناصر الصوتية بتمييز الجملة بوساطة تعيين حدودها وتقسيمها وتبيين التشديد ضمنها، في حين تقوم العناصر الصوتية بتمييز الكلمات في ذاتها، وتؤدي ذلك بوساطة تمييز معاني الكلمات فحسب. وإن تأكيدات بعض اللغويين أن هناك في اللغة ـ علاوة على هذه العناصر التي تقوم بتمييز معاني الكلمات ـ بعض العناصر الصوتية التي تقوم مباشرة بتمييز معاني الجمل، إن هذه التأكيدات غير دقيقة ويمكن أن تؤدي ـ وفي الحقيقة فإنها أدت ـ إلى فهم خاطىء. إن مثل هذه الوسائل الصوتية لا تعطينا معلومات تتعلق بالمضمون المعرفي للجمل، إنها تشير ـ فقط ـ إلى وظيفتيها الانفعالية emotive أو الرغبوية conative ـ الانفعال أوالعاطفة. ولا يمكن أن تفسر الجملة الاستفهامية interrogative بوصفها شكلاً من أشكال المعلومات فالسؤال ليس جزءاً من المعلومات ولكنه رغبة في الحصول على المعلومات فقط. إن تنغيم

الجمل الاستفهامية يرمز إلى ـ باستقلال تام عن محتواها ـ حقيقة الاستفهام interrogation. ويمكن أن يستغني هذا التنغيم حتى عن الكلمات ويأخذ شكل همهمة لانطقية.

وفي بعض الأحيان يُدَوَّن هذا النوع من السؤال الصامت في حوارات الروايات أو قصص المجلات بكتابة شكل علامة السؤال غير المصحوبة بالكلمات ـ ؟

أن التنغيم الاستفهامي أو التعجبي exclamatory ـ وكل الوسائل الصوتية الأخرى للرغبة المعبر عنها أو الانفعال، وباختصار كل الوسائل الصوتية للغة التعبيرية ـ متصلة مباشرة بالانفعال التعبيري أو الرغبة. وعلى سبيل المثال، فإن الامتداد التعبيري للصائت المنبور «mlyj الأعز» أو الصائت السابق للنبر الرئيسي pretonic «spasibo شكراً جزيلاً» في اللغة الروسية، أو الانزياح displacement التعبيري للنبر «formidable مدهش» في اللغة الفرنسية، يبين بنفسه شدة الانفعال. وما يشار إليه ـ مباشرة ـ بوساطة الوسائل الصوتية التي نحن بصددها هو حقيقة الانفعال أو الرغبة نفسيهما.

إن كل هذه الحقائق التي ذكرناها تطابق تعريف الإشارة الذي قدمته السكولائية Scholastics، والذي تبناه المنظر اللغوي كارل بوهلر Karel Buhler في بحثه الواسع Sprachtheorie (Jena, 1934): aliquid stat pro aliquo تأخذ الكلمة وكذلك المورفيم ـ مثل جذر ما أو زائدة ما (سواء أكانت الزائدة لاحقة أم بادئة المترجم) ـ مكان مضمون مفهومي خاص لكي يتحقق الكلام، فالكلمة أو المورفيم تمثل المضمون. ويقول فرديناند دي سوسير أن «الكلمة يمكن أن تستبدل بشيء ما مختلف في ذاته: فكرة ما» ويمكن لهذه الوسائل الصوتية التي تعين وتقسم الجمل أن تستبدل

بتقسيمات في سلسلة المفاهيم: كما يمكن أن تستبدل الوسائل الصوتية المعبرة بانفعال معبر.

ولكن، ما هو نظير الفونيم؟

الدال: خاصية صوتية، ولكن ما هو المدلول؟

يختلف الفونيم ـ وعناصره التي سنعود إليها فيما بعد ـ عن كل القيم اللغوية الأخرى، في أنه لا يمنح أي معنى مميز. ويمكن أن يتشكل المورفيم ـ أو حتى الكلمة ـ من فونيم مفرد، وعلى سبيل المثال، فإن الفونيم الأنفي nasal (a) في اللغة الفرنسية يؤدي دور تصريف لاسم الفاعل present particible «cach-ant مختبىء all-ant ذاهب»، بل وكذلك دور اسم مستقل « an سنة»، ولكن الفونيم الأنفي (a) في كلمات مثل: entrer يدخل، vent ريح، vente بيع، sang دم، cancan أب أو أم بالمعمودية، لا يؤثر في أي شيء من هذه المعاني في حين يبيّن ـ دائماً ـ التنغيم الاستفهامي سؤالاً ما، ويقوم امتداد الصائت في اللغة الروسية بالتعبير عن الانفعال فحسب، ويبقى الفونيم المزماري glottal لحرف العلة الأمامي prevocalic لا يقدم أي شيء غير تبيين بداية كلمة ما.

إن القيمة اللغوية للفونيم الأنفي (a) في اللغة الفرنسية، والقيمة اللغوية لأي فونيم ـ عموماً ـ في أية لغة على الإطلاق، تكمن ـ فقط ـ في قوته على تمييز الكلمة المتضمنة لهذا الفونيم من أي من الكلمات ـ المتشابهة في جوانبها الأخرى كافة ـ التي تتضمن فونيماً ما آخر. وهكذا تكون الكلمة sang متميزة من son، sein، ca، sceau، sou، su، si إلخ...، وتكون الكلمة cachons متميزة من cachons، Cacher cachã، cachot، cachou إلخ.. وتكون

الكلمة an متميزة من on، eau، ou، eu إلخ..، وإذا ميّزت كلمتان بوساطة فونيمات أو بوساطة تنظيم الفونيمات، تكون ـ حينذاك ـ هذه الفونيمات مضطلعة بمهمة ملاحظة الفرق وتتبادل هذه المهمة فيما بينها. وعلى سبيل المثال، تميّز الصيغ المصدرية infinitives التالية في اللغة الروسية بوساطة الصوامت الابتدائية فحسب: drat يكسو brat يأخذ، vrat يضطجع، žrat يلتهم، وتتناقض الصيغ المصدرية التالية معها بوساطة نظام الصامتين الأولين: rvat ينتزع ržat.

إن الصيغة السكولائية aliquid stat proaliquo قابلة لأن تطبق على جميع الإشارات وعلى جميع العناصر المتممة للإشارات، وقد رأينا أن جميع المكونات النحوية والمعجمية للغة تطابق هذه الصيغة، كما تطابق كل تلك الوسائل الصوتية التي تميز الجمل وكل وسائل اللغة المعبرة. إن لكل هذه العناصر في نظام أية لغة قيمتها الخاصة، المميزة والراسخة وأن الشكل الصوتي لكل هذه العناصر يطابق مضموناً معيناً.

ولكن ما هو المضمون الذي يطابق الشكل الصوتي للفونيم؟

إنه اختلاف المعنى ـ الاختلاف الذي يكون مميزاً وراسخاً ـ الذي يطابق الاختلاف بين مورفيمين. إن الاختلاف بين سؤال ما وجواب ما يطابق الاختلاف بين تنغيمين للجملة. ولكن، ما هي القيمة التي تطابق الاختلاف بين فونيمين؟

إن ما يطابق الاختلاف في المعنى فقط، في حين يتنوع مضمون هذه المعاني المختلفة من كلمة إلى أخرى.

لقد كانت معالجة الفلسفة الوسيطة هي المعالجة الأكثر دقة

لمشكلة الإشارة ولا سيما مشكلة الإشارة اللغوية وعناصرها. وقد وعى توما الاكويني بوضوح ـ في الحالة التي نناقشها ـ أننا نتعلق بالدوال الاصطلاحية significantia artificialiter التي تقوم بـ ad significandum ولكنها ـ في الوقت ذاته ـ لا تعني شيئاً في ذاتها. لقد كانت هذه حقيقة ـ حقيقة الأخذ بنظر الاعتبار وضع الفونيم في النظام اللغوي وفي عالم الإشارات بشكل عام ـ فذّة واستثنائية بشكل كامل، لقد كانت حقيقة حاسمة لتحليل الفونيم.

ولسوء الحظ، سعى الباحثون إلى التقليل من أهمية هذا الاختلاف الحاسم أو حتى إلى تجاهله تماماً، بدلاً من تأكيد هذا الاختلاف المحوري والتشديد عليه. وعلى سبيل المثال، فإن بعض الكتاب ـ ولا سيما اللغوي الهنغاري لازيكزيوس Laziczius ـ قدم فكرة أن ليس هناك اختلاف في النوع، بل في الدرجة فقط ـ اختلافات ثانوية ـ بين الفونيمات من جهة أولى والوسائل الصوتية الأخرى للغة ـ الوسائل المحددة والمعبرة مثلاً ـ من جهة ثانية. وعلى أية حال ـ وكما بيّنا سابقاً ـ كان هذا الاختلاف ـ في الحقيقة ـ لافتاً للنظر وأساسياً. فيما كان لكل العناصر الأخرى ـ مضمون ثابت، معنى مباشر ـ فونيمات متميزة بوساطة التغاير، كان لها قيمة تمييزية فحسب، وبالتالي قيمة سلبية خالصة. وبقدر ما لم تميز تضمينات هذا التقابل تحليل الفونيم، فقد بقيت عائقاً ولم تحقق نتائجه. وقد فهم فرديناند دي سوسير ـ بصورة تامة ـ الخاصية التميزية والسلبية الخالصة للفونيم، ولكنه بدلاً من أن ينطلق من تضمينات هذا لتحليل الفونيم، عَمَّمَ ـ بسرعة فائقة ـ هذا الوصف وسعى لأن يطبقه على جميع الكيانات اللغوية. وقد ذهب بعيداً جداً كيما يؤكد أن ليس ثمة في اللغة إلاّ الاختلافات من

دون اتفاقات إيجابية. ومن وجهة النظر السوسيرية فإن المقولات النحوية هي ـ أيضاً في ذاتها ـ قيم سلبية فحسب، إن الشيء الدال والوحيد لكل مقولة هو فقدانها التماثل مع غيرها، مقولات تقابلية. وفي هذه النقطة يرتكب سوسير خطأ خطيراً في خلط فكرتين مختلفتين. إن المقولات النحوية كيانات نسبية، وتحدد معانيها بوساطة نظام كلي لمقولات لغة معينة وبوساطة دور التقابلات ضمن هذا النظام. وعلى سبيل المثال، فإنه من الواضح أن المقولة النحوية لصيغ الجمع plural تفترض مقدماً وتدل ضمناً على وجود مقولة مضادة، هي مقولة صيغة المفرد singular.

ولكن ما هو محوري بالنسبة لصيغة الجمع، وما يجيز وجودها في اللغة، هو قيمتها الحقيقية الخاصة، أي تعيين الجمع plurality. ويعطينا سوسير مثالاً من اللغة الالمانية: صيغة المفرد «Nacht ليلة» وصيغة الجمع «Nachte ليالي». حقاً أن طرفي هذا الثنائي يفترض مقدماً ـ وبشكل متبادل ـ كلٌ منهما الآخر، بيد أننا لا نستطيع أن نذهب بعيداً مع سوسير حينما يخبرنا: «لا تعني كلمتا Nacht و Nachte أي شيء إذا ما أخذتا بصورة منعزلة» ولا يمكننا أن نقبل هذا لأن «Nachte» بالنسبة لكل المتكلمين تعيين مستقل ومباشر لجمع محدد. غير أنه سيكون ـ من ناحية أخرى ـ من الصحيح تماماً بالنسبة لنا أن نقول أن الفونيم الأنفي /a/ لا يعني أي شيء إذا ما أخذ بصورة منعزلة، لأن قيمته الوحيدة في اللغة الفرنسية هي لاتماثله مع كل الفونيمات الأخرى للغة الفرنسية.

إن كل تقابل للمقولات النحوية له مضمون إيجابي ضرورة، في حين أن التقابل بين فونيمين ليس له هذا المضمون الإيجابي مطلقاً. إن الفونيمات طبقاً لمحاضرات سوسير هي ـ قبل كل شيء آخر ـ

كيانات تقابلية ونسبية وسلبية. والآن، فإن المقولات النحوية هي ـ كذلك ـ كيانات تقابلية ونسبية ولكنها ليست كيانات سلبية. وهذا ـ إذن ـ هو الفرق المشوش.

يصرح سوسير ـ في تمييز الفونيمات بوصفها كيانات تمييزية وسلبية ـ إن الحالة المماثلة للمسألة توجد في ذلك النظام الإشاري الآخر، أي الكتابة. فهو يعتقد أن «قيمة الحروف قيمة سلبية وتمييزية خالصة» وهكذا، ربما يكتب شخص ما الكرافيم grapheme نفسه بتنوع في الطرائق، وإن الشيء الأساسي الوحيد هو أن هذه الإشارة لا تختلط «مع الكرافيمات الأخرى». من البديهي القول أن وجود النظام المحدد للكرافيمات هو متطلب ضروري لتنظيم كل حرف. ولكن الشيء الذي يكون ذا دلالة رئيسة هنا هو القيمة المميزة والإيجابية لكل كرافيم.

وبطبيعة الحال، فإن الحرف beta يجب أن يكون مميزاً من الحروف alpha، gamma، delta إلخ..، ولكن مسوّغ الوجود بالنسبة للكرافيم الإغريقي beta هو تعيينه الفونيم b، وكل الكرافيمات الأخرى التي تنجز مهمة مشابهة. إن الصورة المكتوبة graphicimage تؤدي وظيفة دالّ، ويؤدي الفونيم وظيفة مدلول للصورة المكتوبة.

وهكذا، يقف الفونيم ـ هذا العنصر الرئيسي في مفصلة كل شيء في النظام اللغوي ـ على النقيض من كل الأجزاء الأخرى المتممة لهذا النظام، ولهذا الفونيم الخاصية الاستثنائية والمميزة بصورة تامة، الخاصية التي لا توجد في أي كيان مناظر للفونيم في الأنظمة الإشارية الأخرى. وليس ثمة كيان مشابه في هذه الناحية، لا في لغة الإيماء، ولا في لغة الصيغ العلمية، ولا في رمزية ابتكار

الشعارات، الفنون الجميلة والشعائر. وقد حاول كارل بوهلر أن يقارن الفونيم مع الإشارات الأخرى مثل طوابع البريد والأختام، ولكن التشابه الجزئي هو تشابه خارجي.

إن الطوابع البريدية والعلامات التجارية هي - بطبيعة الحال - إشارات تمييزية بيد أن لكل من هذه الإشارات - على النقيض من الفونيمات - علاوة على ذلك، معناها الإيجابي والمميز والثابت الخاص. وهكذا يعين الطابعان الاميركيان «2 سنت» و «3 سنت» ليس فقط الاختلاف في القيمة، بل كذلك - وبأهمية كبيرة - الخصوصية المحلية لرسالة تحمل طابعاً ذا سنّتين (2 سنت) وخصوصية رسالة بين مدينتين تحمل طابعاً ذا ثلاثة سنتات. إن الفونيم هو الإشارة الوحيدة التي تكون تمييزية ولا مضمونية بشكل خالص. وإن المضمون اللغوي الوحيد للفونيم، أو - بصورة عامة - المضمون الدلالي الوحيد له، هو اختلافه عن كل الفونيمات الأخرى لنظام معين.

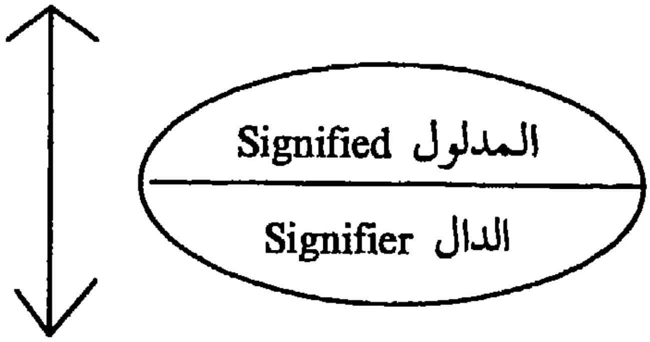
إن فونيماً ما يدل على شيء ما مختلف عمّا يدلّ عليه فونيم آخر في الحالة نفسها، إن هذه هي قيمته الوحيدة. وربما يكون المتكلم الفرنسي غير متآلف سواء مع الكلمة العامية «mek رجل» أم مع الكلمة المتخصصة «mok - : مصطلح بحري لنوع خاص من البكرات الخشبية» ولكنه حين يسمع هاتين الكلمتين فسوف يفترض أنهما يدلان على شيئين مختلفين لأنهما يختلفان في واحد من فونيماتهما. ذلك لأن الفونيم (aliquo) المذكور في الصيغة السابقة هو فقط قيمة التغير أو الأخرية otherness، وعلى أية حال، فإن اللغة - بالمعنى الضيق للكلمة - تتميز من الأنظمة الإشارية الأخرى بوساطة الأساس الحقيقي لتكوينها. إن اللغة هي النظام

الوحيد الذي يتكون من عناصر هي دوال إلا أنها ـ في الوقت نفسه ـ لا تدل على شيء. وهكذا يكون الفونيم هو العنصر المميز للغة. وتميل المصطلحية الفلسفية إلى أن تسمى الأنظمة الإشارية المتنوعة بـ «اللغات» وتسمى بشكل دقيق ـ لغة الكلمة. وربما سيكون من الممكن أن نحددها ـ على نحو أكثر دقة ـ بتسميتها لغة الفونيم phoneme language وأن لغة الفونيم هذه هي الأكثر أهمية من بين أنظمة الإشارة المتنوعة، إنها بالنسبة لنا لغة غاية في الروعة، لغة تدعى ـ على نحو دقيق ـ باللغة الرفيعة المستوى[1].

وربما يتساءل شخص ما عمّا إذا كانت هذه المنزلة الخاصة للغة الفونيم غير مطابقة بدقة للخاصية المميزة لمكوناتها، غير مطابقة للخاصية المتناقضة للعناصر التي تدلّ ـ في وقت واحد ـ مع أنها مجردة من كل معنى.

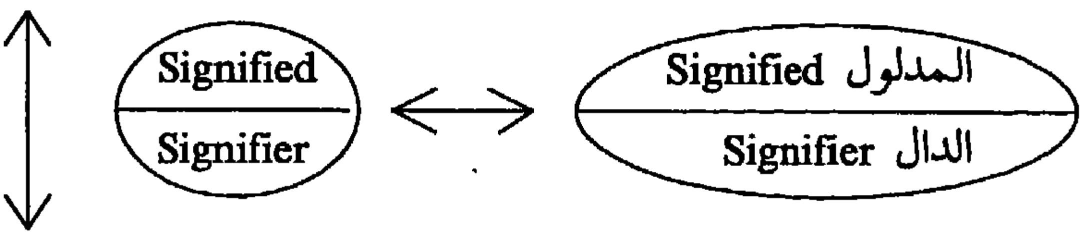
إن وظيفة الفونيمات في اللغة هي ظاهرة تقودنا إلى الاستنتاج الآتي: الفونيم يؤدي وظيفة إذن هو موجود. لقد كانت هناك مناقشة واسعة جداً حول شكل هذا الوجود، إن هذه المشكلة ـ التي لا تعنى بالفونيم فحسب وإنما تعنى بكل القيم اللغوية، وبشكل أعم، تعنى بالقيم السيموطيقية كافة ـ تقع بوضوح خارج اهتمامات الفونولوجيا وحتى اللسانيات ككل، وستكون أكثر حساسية أن تسلم برمتها إلى الفلسفة ـ وبشكل خاص إلى الأنطولوجيا ـ ذلك الفرع الفلسفي الذي يعنى بتأمل ودراسة قضايا الكينونة. إن العمل المطلوب للغوي هو التحليل العميق للفونيم، البحث المنهجي في بنيته، وقد توصلنا سابقاً إلى وجهة النظر القائلة: إن الفونيمات ـ العناصر الصوتية التي تميز بموجبها الكلمات ـ تختلف عن كل الوسائل الصوتية الأخرى للغة، وعن كل القيم اللغوية عموماً، من حيث أنها ليست ذات معنى إيجابي ومحدد. واللغة فقط هي التي تسمى، بصورة ملائمة، بأنظمة العلامة، وضمن هذا فإن الكلمات، التي تتكون من عناصر دالة وخالية من المعنى في الوقت الواحد نفسه. استنتج سوسير، من الفصل الذي خصصه لـ (القيمة اللغوية) في كتابه محاضرات في اللسانيات العامة، ملاحظة ذكية هي: إن ثمة عاملين ضروريين لوجود أية قيمة لغوية ـ علاقتين الأولى علاقة التغاير Heterogeneous، والأخرى علاقة التجانس Homogeneous. إذ

تتكون القيم اللغوية دائماً من: (1) شيء مباين يكون قابلاً للاستبدال بالشيء الذي تحدد به القيمة:



(ففي اللغة اللاتينية، مثلاً، يكون مفهوم حالة المفعولية -amic um accusative) قابلاً للاستبدال بالصورة السمعية للتعريف (-um) والعكس بالعكس.

(2) أشياء مشابهة يمكن أن تقارن بالشيء الذي تحدد قيمته كما يلي:



وهكذا فإنه يمكن مقارنة هاتين القيمتين اللتين تنسبان إلى النظام نفسه (Amic-um and amic-o): فعلى مستوى الدال تكون هاتان القيمتان شكلين صوتيين مختلفين، وهما في هذه الحالة um and o، وعلى مستوى المدلول فإن هاتين القيمتين تكونان معنيين

نحويين مختلفين، أو بدقة أكثر، متقابلين. إن الفونيمات ذاتها هي، كذلك، كيانات ذات جانبين، بيد أن خصوصيتها تكمن في حقيقة أن التمييز بين فونيمين يتضمن اختلافاً واحداً معيناً وثابتاً. يظهر هذا الاختلاف على مستوى الدال، في حين توجد، على مستوى المدلول، إمكانية بسيطة للتمييز بين المعاني فقط: فهو، إذن، موضوع لعدد لا محدود من الاختلافات العينية.

يترتب على هذا أن تصنيف المورفيمات morphemes أي تلك العناصر الأصغر وغير القابلة للتجزئة من وجهة نظر نحوية ـ مثل الجذور أو اللواحق البسيطة، والحالة ذاتها مع تصنيف الكيانات اللغوية كافة ذات المعاني الإيجابية والمحددة، يترتب على هذا أن هذين التصنيفين مختلفان جوهرياً عن تصنيف الفونيمات. إذ يتأسس نظام المتقابلات المورفولوجية والنحوية العام على مستوى المدلول. وبهذا تعين المتقابلات بوساطة الحالات التي تكوّن التصاريف وتحددها. ففي اللغة اللاتينية، على سبيل المثال، ثمة تقابل واضح بين المعنى العام لحالة المفعول غير المباشر dative وحالة المفعول المباشر accusative، وثمة تقابل مماثل بين المعنى العام لحالة الرفع nominative والحالة الابلتية ablative. ومن جهة أخرى فإن معنى حالة الرفع هو مقابل منطقي لمعنى حالة المفعول المباشر، وبالطريقة نفسها، فإن معنى الحالة الابلتية هو مقابل منطقي لمعنى حالة المفعول غير المباشر. وبالنسبة للشكل الخارجي لحالة هذه التصاريف كافة فإنها تمثل ـ ببساطة ـ بوساطة مجموعات صوتية متميزة لا يوجد بينها، على الإطلاق، تقابل منطقي. إن فكرة مفعول به غير مباشر لفعل معين تستدعي، بالضرورة، فكرة مفعول به مباشر، وباختصار فإن معنى المفعول به غير المباشر يدل

ضمناً على معنى المفعول به المباشر، بيد أن الشكل الصوتي للاحقة (o-)لا يدل ضمناً، بأي شكل من الأشكال، على الشكل الصوتي للاحقة (um-). إن دلالة تضمن الفعل مفعولاً ما هي خاصية مشتركة لحالة المفعول المباشر وحالة المفعول غير المباشر، وإن لهذه الدلالة نظيرها الضروري في حالة غياب مثل هذه الدلالة، غياب يكون خاصية مشتركة لحالة الرفع والحالة الابلتية. يدل معنى الجمع Plural ضمناً على وجود المفرد، بيد أن لاحقة الجمع (i-) لا تحتم قبلياً، بوساطة شكلها الصوتي، لاحقة المفرد المطابقة (us-).

وبالمقابل فإن ثنائياً من فونيمات معينة لا يشير إلى أي مضمون إيجابي فإن المقابل يعتمد، في هذه الحالة، على الدوال فقط. لنتأمل، على سبيل المثال، الفونيمات الفرنسية: الصوائت أو الصوامت الأنفية (/n/ أو /á/) مقابلة للصوائت والصوامت اللاأنفية (/d/ أو /a/) والصوامت الاحتكاكية constrictiv مقابلة لصوامت الغلق (/p/ أو /t/) والصوائت المدورة rounded (/o/ أو /ü/) مقابلة للصوائت غير المدورة unrounded (/e/ أو /i/). لدينا، إذن، على مستوى الدال المتقابلات

$\overline{\text{ü-i}}$ $\overline{\text{s-t}}$ $\overline{\text{á-a}}$ إلخ.

ولكن كل هذه المتقابلات المتعلقة، على مستوى المدلول، تمتلك نظيراً مفرداً فقط، وهو نفسه في كل واحدة منها، وهو الذي يميز بين معاني الكلمات:

$$\frac{X\neq Y}{\boxed{\text{ü-i}}} \quad \frac{X\neq Y}{\text{s-t}} \quad \frac{X\neq Y}{\text{á-a}}$$

وبناء على ذلك فإن ما يميز كل ثنائي معطى من الفونيمات هو، فقط، تقابلها على مستوى الدال. إن هذه المتقابلات هي الأشياء الوحيدة التي تحدد موضع الفونيمات المتنوعة في النظام الفونولوجي للغة معينة. ويدل هذا ضمناً أن تصنيف الفونيمات يمكن أن يتأسس على مستوى الدال فقط. والآن فقد بينت الملاحظة أن أي دال يتصل بمدلول إيجابي ومحدد ومتجانس، ينزع لأن يصبح ثابتاً، أو حتى ضرورياً، ومقيداً إليه، وحيثما توجد مثل هذه العلاقة الثابتة فإنه يمكن إدراك المدلول بسهولة استثنائية.

لقد أثبتت التجارب المتعددة والمتنوعة أن الكلاب قادرة على تمييز وتعيين معظم الإشارات السمعية الدقيقة. حيث أثبت البايولوجيون البافلوفيون أنه إذا كان وصول طعام الكلب يميز دائماً بصوت نغمة معينة فإن الكلب سوف يرينا بأنه يستطيع إدراك معنى هذه النغمة، وبأنه يستطيع تمييزها من كل النغمات الأخرى، حتى من تلك الشبيهة بها جداً.

وطبقاً للعلماء الإيطاليين فإنه حتى السمك لديه الملكة نفسها. إذ يزعم أن لأنواع معينة من السمك سمعاً مرهفاً إلى حد بعيد، وإنها قادرة على تمييز المعاني المختلفة للإشارات الاكوستيكية بدقة مدهشة تماماً. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار إشارة معينة واحدة فإن السمك، في حوض الماء، يدرك أنه سوف يستلم طعامه، وثمة إشارة أخرى، مختلفة عن الأولىٰ بصورة طفيفة، تحذرها من توقع شيء مؤذ، وهناك إشارات أخرى لا تعلن أي شيء سواء أكان جيداً أم رديئاً. وبعد حقبة من التدريب يصبح السمك قادراً على استخدام (لغة) الإشارات هذه. فالسمك يصعد إلى السطح حالما يعطي الإشارة الأولى ويختفي حالما يعطي الإشارة الثانية، ويبقى

غير مبال حيال كل الإشارات الأخرى.

فهي تدرك الإشارات طبقاً لمعانيها، وبسبب معانيها فقط، وبسبب الارتباط الدائم والميكانيكي بين المدلول والدال.

نحن نتعلّم من علم النفس التجريبي أننا قادرون تماماً على إدراك معظم الانطباعات السمعية المتنوعة وحتى عندما تكون مشوشة فإنه يمكن إدراكها، فقط، بصعوبة، ونستطيع أن نميز أحدها عن الآخر فضلاً عن تحديدها، شريطة أن تتحد، بالنسبة لنا، بمعان خاصة بصورة صارمة وحميمة، وبذلك فإنها تؤدي وظيفة بوصفها إشارات بسيطة، وعلى العكس من ذلك، إذا لم تكن انطباعاتنا السمعية قابلة للتحليل، وإذا كانت مشوشة ومفتقرة، كذلك، لمعنى مباشر، فإنه من الصعوبة إدراكها وتميزها، ومن الصعوبة أن ترتسم على ذاكرتنا.

والآن، وكما بينا سابقاً، فإن الفونيمات ليس لها، في ذاتها، معانيها المعينة الخاصة، وكذلك، فإن الاختلافات السمعية بين الفونيمات المتنوعة لأية لغة معينة هي، غالباً، صغيرة ودقيقة جداً إلى حد أنه من الصعوبة، في بعض الأحيان، ضبطها حتى بالوسائل الحساسة. لدرجة أن المتخصصين المحدثين في حقل الاكوستيكية يندهشون بحيرة بأزاء الإمكانية التي تدرك بها الأذن البشرية، من دون صعوبة، التنوع الضخم في أصوات لغة معينة، بحيث أن هذه الأصوات تكون كثيرة جداً وأن تنوعاتها غير مدركة حسياً، كذلك أيمكن، فعلاً، أن تكون ثمة ملكة سمعية خالصة متضمنة هنا؟ كلا، كلا مطلقاً، فما ندركه في لغة محكية ليس أصواتاً مختلفة في ذاتها وإنما استخدامات مختلفة عبرت عنها اللغة، أي أنها اختلافات ـ على الرغم من أنها في ذاتها من دون معنى ـ تستخدم لتمييز

كيان من بين كيانات أخرى في مستوى أعلى (المورفيمات، الكلمات). يدرك كل المتكلمين الأصليين للغة معينة ـ من دون استثناء وعلى نحو مضبوط ـ الاختلافات الصوتية الدقيقة جداً في نطاق إنجازها وظيفة تمييزية في تلك اللغة، في حين أن الأجنبي ـ بِما في ذلك الملاحظ المُتَدَرِّبُ أو حتى اللغوي المتخصص ـ غالباً ما يواجه صعوبة بالغة في إدراك تلك الاختلافات إذا لم تنجز هذه الوظيفة التمييزية في لغته الأصلية.

ونحن نستطيع إعطاء حشد من الأمثلة لتوضيح هذه النقطة. فالاختلاف بين الصوامت الحنكية واللاحنكية تكون ذات قيمة تمييزية في اللغة الروسية. فهي تستخدم لتمييز الكلمات. حيث يكون الصامت الحنكي، في اللغة الروسية (/t'/) t والصامت اللاحنكي t فونيمين متميزين، وكذلك الفونيمان /S'/ و/S/ والفونيمان /P'/ و /P/، وهكذا. وبمرور الوقت يتمكن الطفل الروسي بعمر ثلاث سنوات من إدراك هذا الاختلاف من دون صعوبة ويعده للاستخدام. وكما كان الأمر واضحاً ومتميزاً للروس كذلك الحال نفسه بالنسبة للمتكلمين الفرنسيين الأصليين فيما يتعلق بالاختلاف بين الصوائت المدورة وغير المدورة، وعلى سبيل المثال، الاختلاف بين (ö) و (e). بيد أن الاختلاف بين الصوامت الحنكية واللاحنكية، التي كانت واضحة جداً ولافتة للنظر بالنسبة للروسي، غير محسوسة عملياً، وغير موجودة تقريباً بالنسبة للشخص التشيكي أو السويدي أو الفرنسي كما لاحظت ذلك في موقف ما. فقد تلفظت أمام طلاب تشيكيين وسويديين بأزواج من الكلمات مثل (krov') دم و (krov) ملجأ. تنتهي الكلمة الأولى منها بالفونيم الحنكي (f) وتنتهي الثانية بالفونيم (f) ولكن من دون

صفة حنكية. فعندما أقول (krof') لا أحد منهم يعرف أنني أتكلم عن (الدم) أم عن (الملاجىء). وحينما يقول الروس (udar') و (udar): فإن الكلمة ذات الفونيم (r) الحنكي هي صيغة أمرية للفعل (يضرب)، وإن الكلمة (udar) ذات الفونيم (r) غير الحنكي هي اسم يعني (يهب) أو (يقرع). والأجنبي الذي لم يستخدم هذا التقابل بين الفونيمات الحنكية واللاحنكية يحتاج إلى جهد حقيقي لكي يسمع هذا الاختلاف الذي يستطيع أي روسي سماعه من دون صعوبة. ومن الواضح أنه من الخطأ أن نستنتج بأن للروسيين سمعاً أكثر دقة، ذلك أنها مسألة تتعلق بكيفية اشتراك الشخص في علاقة بهذه الأصوات. ويحدد هذا بوساطة نظام من الفونيمات ـ النظام الفونولوجي ـ لكل لغة. وبسبب التقابل بين الصوامت الحنكية واللاحنكية، يمكن للمتكلمين الروس أن يدركوا التمييز بين كلمات لغتهم.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالفونيمات فقد أكد سوسير، بحق، أن الشيء المهم هو أنه لا يمكن مطلقاً لكل كيفية صوتية مفردة لفونيم ما أن تدرس بمعزل وأن تقوم بذاتها. فما هو مهم هو تقابلها التبادلي ضمن نظام فونولوجي. إذ يفترض كل فونيم، مقدماً، شبكة من المتقابلات مع فونيمات النظام الأخرى. وفي الصيغة الآتية ـ تُوضِّح، بشكل لا لبس فيه، نظرة سوسير: (الفونيمات هي، قبل كل شيء آخر، كيانات متقابلة ونسبية وسلبية). لقد ناقشنا النقطة المركزية في هذه الأطروحة الرئيسة، وسنحاول الآن تبين تطبيقاتها.

بدءاً ينبغي أن نستذكر ما علمه إيانا المنطق Logic عن موضوع المتقابلات Oppositions. إن الحدود المتقابلة هما اثنان من حيث العدد، ويكونان في علاقة متبادلة بطريقة خاصة تماماً:

فإذا كان أحدهما حاضراً فإن الذهن يستنبط الآخر. وفي ثنائية متقابلة إذا أعطي أحد الحدين فإن الآخر، رغم عدم حضوره، يشار في الفكر. فبالنسبة لمفهوم الأبيض هناك مقابل وحيد وهو مفهوم الأسود، وبمقابل مفهوم الجمال هناك مفهوم القبح، ومقابل مفهوم الكبير هناك مفهوم الصغير، وبمقابل مفهوم المغلق هناك مفهوم المفتوح... وهكذا. لذلك تتداخل المتقابلات بصورة جوهرية بحيث أن ظهور أحدهما يثير بشكل حتمي الآخر.

لنحاول تطبيق هذه الحقائق المنطقية البسيطة على ثنائي من الفونيمات. ولنحلل، على سبيل المثال، العلاقة التبادلية بين فونيمين صائتين: (a,u) من المؤكد أنه بإمكان الفرد أن يفكر في أحد هذين الفونيمين من دون استحضار الآخر. في حين أن الفرد لا يستطيع التفكير في مفهوم الكبر من دون استحضار مفهوم الصغر، وكذا مفهوم الغلاء مقابل ضروري لمفهوم الرخص. بيد أن مفهوم الفونيم (a) لا ينطوي، بأية حال من الأحوال، على مفهوم الفونيم (u) فليس ثمة ارتباط ضروري بين هذين المفهومين. وإذن هل يجب أن نستنتج، أننا، ببساطة، ارتكبنا خطأ في الإشارة إلى العلاقة بين الفونيمات بوصفها، تقابلاً، وهي، في الحقيقة في هذه الحالة موضوع لاختلافات بسيطة، لثنائيات ممكنة بسيطة، وليست متقابلات حقيقية؟

وقبل الرد على هذا السؤال أريد أن أتجه صوب سؤال آخر. لقد قلنا أن الشيء المهم، بقدر تعلق الأمر بالفونيمات، هو الاختلافات، تلك الاختلافات التي تساعد على التمييز بين الكلمات. وهذه هي القيمة اللغوية الوحيدة للفونيمات. فتلك الاختلافات هي، بالضبط، نقطة الانطلاق لأي بحث في

الفونيمات. وكما رأينا فإن الاختلافات ذات القيمة التمييزية أكثر قابلية للإدراك والتذكر من الاختلافات الخالية من القيمة مطلقاً، بيد أن الاختلافات بين الفونيمات، من جهة أخرى، طالما أنها تفتقر إلى معانٍ محددة فإنها تقاوم الإدراك والتذكر وتتطلب، بالضرورة، عناية كبيرة بها. ينبغي أن نتوقع، إذاً، أن عدد هذه القيم الأساسية وغير المشجعة ستكون صغيرة نسبياً لأية لغة معينة.

ولتوضيح هذه المشكلة نستطيع التحول إلى حقل الظواهر البصرية. لنفترض أننا نريد تعلم كتابة Script غير مألوفة، مثلاً، الكتابة القبطية. فإذا كانت تتضمن مجرد تكتل من الزخرفة العربية الخالية من المعنى فسوف تكون هذه المهمة شاقة إلى حد بعيد. إذ سيكون من الصعوبة الرهيبة، مثلاً، أن نعيد إنتاج نص قبطي من الذاكرة إذا لم تكن لدينا فكرة عن قيم مكوناته، بيد أن المهمة ستكون أسهل إذا ما كان لكل حرف من حروفها قيمة إيجابية ومحددة ومعينة بالنسبة لنا. بالإضافة إلى هاتين الحالتين ثمة إمكانية أخرى، حالة وسط تظل فيها القيمة الإيجابية للحروف غير معروفة لنا. ولن نعرف، في هذه الحالة، الدلالة الصوتية للمصطلحات الموجودة في النص القبطي، ولكننا سوف نتبين كل كلمة من كلماته حالما تتوفر على ترجمة حرفية.

وبناء على ذلك ستؤدي لنا الحروف وظيفة بوصفها عناصر تمييزية خالصة إذ ستساعد على تمييز معاني الكلمات. ولكنها، في الوقت نفسه، لا تملك معنى في ذاتها. وإذا ما تأملناها من وجهة نظر وظيفية، فإن تلك الحروف، إذن، سوف تطابق فونيماتنا. ومن المؤكد أنه سوف يكون تعلم الكتابة، في هذه الحالة، أسهل بكثير من الحالة المتخيلة الأولى التي لا تكون فيها للحروف،

بالنسبة لنا، علاقة بمعنى معين، وعليه لن تكون، كما رأينا بأنفسنا، أكثر من علامات كتابية بسيطة. ومع ذلك فإنه من الصحيح، أيضاً، أن تعلم الكتابة، في هذه الحالة الوسط، سوف يطرح صعوبة جديدة مقارنة بالحالة الثانية التي يكون فيها لكل حرف، بالنسبة لنا، قيمة إيجابية. ولنتذكر فإن الحالة الوسطى هي كما يأتي: تبقى معاني الحروف القبطية غير معروفة لنا، وإن كل ما نعرفه هو معنى كل كلمة مكتوبة في النص القبطي.

والأكثر من ذلك هو أنه يمكن رد الحروف المختلفة إلى اختلافات كتابية بسيطة ومنظمة، وستكون فرصتنا كبيرة في النجاح في جهودنا لتعلم هذه اللغة في شكلها الكتابي. بيد أن أنظمة الكتابة تكون، عادة، معقدة تماماً ولا يمكن ردها إلى عدد محدود من المتقابلات المرئية المميزة، وسيكون من الصعوبة، كذلك، تحقيق هدفنا.

يمكن إظهار معاني الكلمات المكتوبة للأطفال الصم، وبالطريقة نفسها يمكن للمرء أن يجعل أطفالاً آخرين يفهمون معاني كلمات متداولة. ولكننا نتعلّم من المتخصصين في تعليم اللغة للصم الحقيقة المفيدة الآتية: إن استيعاب ورسوخ القراءة والكتابة ليس ممكناً ما دامت المعرفة باللغة في شكلها الصوتي ما تزال ضعيفة. ومع ذلك يتضح أن مشكلة اكتساب الفونيمات متطابقة تماماً، وبصورة أساسية، مع مشاكلاتنا قيد الدرس.

لنحاول تحليل مثال ما. يتألّفُ النظام الصائتي للغة التركية من ثمانية فونيمات:

e ö a o

i ü y u

تنتج تلك الفونيمات الثمانية، تبعاً للصيغة الرياضية في التأليفات Combinations، ثمانية وعشرين تمييزاً، وبالتالي ثمان وعشرين علاقة ثنائية. لقد بين لنا فرديناد دي سوسير أن الفونيم يتكون من علاقات فحسب. والآن، إذا اتبعنا هذ العرف السوسيري، وتناولنا تلك التمييزات الثمانية والعشرين بوصفها قيماً أساسية للغة التركية، وتناولنا الفونيم في ذاته بوصفه ثانوياً ومشتقاً (تابعاً) فإننا نكون في خطر الوصول إلى نتيجة متناقضة ظاهرياً، وهي أن عدد القيم الأولية الأساسية أكثر بكثير من القيم المشتقة أو الثانوية: أي ثمانية وعشرين بالمقارنة مع ثمانية. وبهذا نُجابه، بصورة جلية، بتناقض ثانٍ، حيث كان الأول ـ كما نتذكر ـ يتعلق بـ (التقابل) بين الفونيمات الذي لا يتوافق مع القواعد المنطقية للتقابل.

وكيما نزيل كلا التناقضين بضربة واحدة فإنه من البساطة بمكان أن نتخلى عن افتراض قبلي واحد، والذي أصبح تناوله أمراً عادياً، والذي ينذر بقيادة كل البحث الفونولوجي إلى الخطأ. لقد تعلمنا أن التقابلات الفونيمية، وقبل كل شيء الفونيم بحد ذاته، غير قابلة للتحليل. وإذا احتذينا حذو بادوين دي كورتني وسوسير، فإن البحث الفونولوجي، بوصفه نقطة بداية، يقبل التعريف الآتي: (الفونيم هو عنصر فونولوجي لا يقبل التجزئة إلى عناصر فونولوجية أصغر وأبسط). والآن فإن هذا التعريف (الذي أقر منذ إثنتي عشرة سنة في المؤتمر الفونولوجي الأول في مشروعنا لتوحيد المصطلح الفونولوجي، والذي تبناه الملتقى الدولي) يصبح غير صحيح. في النظام الفونولوجي للغة التركية تقابل الصوائت (o,a,ö,e)، الصوائت الحركية (u,y,ü,i)، بوصفها فونيمات مفتوحة Open Phonemes مقابل فونيمات مغلقة Closed Phonemes، والصوائت (o,u,a,y)

تقابل الصوائت (ö,ü,e,i) بوصفها فونيمات خلفية back مقابل فونيمات أمامية Front، والصوائت (o,u,ö,ü) تقابل الصوائت (a,y,e,i) بوصفها فونيمات مدورة rounded مقابل فونيمات لا مدورة Unrounded وبهذا الشكل يمكن رد التقابلات الثمانية والعشرين المزعومة إلى تقابلات أساسية ثلاثة:

(1) المفتوح والمغلق Openness and closure

(2) الخلفي والأمامي back and front

(3) المدور واللامدور roundness and unroundness

وبموجب هذه الثنائيات الثلاثة للعناصر التمييزية ـ وهي في الحقيقة غير قابلة للتحليل هذه المرة ـ ، تشكلت الفونيمات الصائتة الثمانية في اللغة التركية. وهكذا، يتكون الفونيم التركي (i) مثلاً، وهو كيان مركب من العناصر التمييزية الثلاثة الآتية: المغلق، الأمامي، اللامدور.

لقد كان تشخيصنا للعناصر التمييزية في مصطلحات ملائمة لفعل النطق act of phonation للأسباب الآتية: ـ أولاً: لأن تلك المصطلحات مألوفة جداً، وثانياً: لأن التعريفات الاكوستيكية المطابقة، بينما ستكون ملائمة جداً بوصفها طريقة في إبراز السمات البارزة للكيفيات التي نحن بصددها، فإنها ستكون بحاجة إلى توضيح معين، وسيأخذ هذا الكثير جداً من وقتنا الحاضر. وبالتالي فإننا لن نفعل أكثر من التأكيد على أن كل عنصر تمييزي يظهر سِمَةً اكوستيكيةً واضحةً وقابلةً للتحديد بسهولة، وبوساطة تحليل النطق بدقة في ضوء هذا الأثر الاكوستيكي فإننا نكون، دائماً، في موقع لتمييز عامل أساسي مفرد من حشد من الحركات

النطقية، الذي ينتج الأثر الاكوستيكي الذي نحن بصدده.

ليست، فقط، الاختلافات بين الفونيمات الصائتة، في اللغة التركية قابلة للتحليل إلى تقابلات ثنائية بسيطة وغير قابلة للتجزئة، وإنما كل الاختلافات بين كل الفونيمات في كل لغة. ويترتب على هذا أن كل الفونيمات الصائتة والصامتة، لكل لغة معينة، يمكن أن تحلل إلى سمات مميزة غير قابلة للتحليل. لقد أزيلت، الآن التناقضات الجليّة. إن التقابلات لتلك الكيفيات التمييزية هي، كما تعرف في المنطق، تقابلات ثنائية حقيقية، بمعنى أن كل واحد من حدود التقابل يتضمن، بالضرورة، مقابلة. وبهذا فإن مفهوم المغلق يقابله، فقط، مفهوم المفتوح، وتتضمن سمات الأمام والخلف، بصورة تبادلية، إحداهما الأخرى، وهكذا.

وبالمقابل فإن العلاقة بين فونيمين هي علاقة مركبة، وربما تكون مؤلفة من بضعة تقابلات بسيطة. فالتمييز بين الفونيمين (u) و (o) في اللغة التركية يتألف من تقابل مفرد فقط، أي بين المغلق والمفتوح، بيد أن التمييز بين الفونيمين (u) و (a) يتألف، بالإضافة إلى ذلك، من سمات المدور وغير المدور، والتمييز بين الفونيمين (u) و (e) يتضمن، بالإضافة إلى التقابلين السابقين، تقابلاً ثالثاً بين سمات الأمام والخلف. من الواضح أن عدد الاختلافات بين الفونيمات، في أية لغة، أكبر من عدد الفونيمات، في حين أن عدد السمات المميزة أقل بصورة ملحوظة. وينبغي أن نتذكر، هنا، إن العناصر التمييزية ذاتها ـ على الرغم من أنها تساعد على تمييز معاني الكلمات ـ ليست ذات معنى، وهذه هي، بالضبط، حقيقة أن تلك الكيانات الجوفاء محدودة العدد، حيث يوجد منها في كل لغة معينة عدد قليل، وهي التي تمكن أفراد كل جماعة لغوية من

إدراكها، ومن إعادتها بالذاكرة ووضعها موضع الاستخدام.

تبدو (العناصر التمييزية)، أو بتعابير أخرى، (الكيفيات أو الخصائص المميزة، أو أخيراً السمات المميزة) في لغة معينة بأنها مؤلفة من حزم. فالفونيم هو حزمة من العناصر التمييزية. بيد أن للعناصر التمييزية ذاتها دورها الخاص في تنظيم اللغات، فهي تعمل، في اللغة، بطريقة تلقائية. فعلى سبيل المثال نحن نجد في لغات كثيرة أشكالاً مختلفة لما يدعى بـ (التجانس الصائتي) Vowel harmony. في لغات كهذه يجب أن يكون لكل الصوائت لكلمة ما كيفية مميزة مشتركة. ففي أغلب اللغات التوركية* Turkic ـ على سبيل المثال ـ لا يمكن للصوائت الأمامية والخلفية أن تظهر معاً ضمن كلمة ما، فأما أن تكون الصوائت كلها أمامية أو كلها خلفية. تأخذ لاحقة الجمع، في اللغة التركية، الشكل (Ler) تبعاً لجذر ذي صائت أمامي، وتأخذ الشكل (Lar) إذا كان للجذر صائت خلفي، وعليه تكون كلمة بيوت بالشكل (ev-ler)، وكلمة خيول بالشكل (at-lar) وهكذا، بعمل المتقابل أمامي ـ خلفي، هنا، بطريقة تلقائية. وفضلاً عن ذلك، يوجد في اللغات التوركية تجانس صائتي شفوي إذ لا يمكن للصوائت المدورة وغير المدورة، في هذه اللغات، أن تظهر معاً ضمن كلمة ما. وأخيراً ثمة لغات معينة، مجموعة اللغات المنغولية monchu مثلاً، لا تسمح لكلا الصوائت المغلقة والمفتوحة أن تظهر معاً ضمن الكلمة نفسها. فعلى سبيل المثال تكون الصوائت المغلقة (u,y,i) في اللغة Gold، لغة منطقة نهر آمور، مقابلة للصوائت المفتوحة (o,a,e)، وهكذا

* تشمل اللغات التوركية، الأذربيجانية، التركمانية والقيرغيزية. المترجم.

تكون كلمة يشتري (ga) وكلمة يوجد (bi) والتعبير لكي يشتري (ga-pogo) والتعبير لكي يوجد (bi-bugu) ـ يضطلع واحد من العناصر التمييزية، في كل الحالات الشبيهة بهذه، بوظيفة تلقائية بمعزل عن الفونيمات المتنوعة التي يكون هذا العنصر جزءاً منها.

تختلف مجموعة الفونيمات الصائتة التي يتاح لها أن تأتي، بعد الصوامت الحنكية، في اللغة الروسية، عن تلك التي تظهر بعد الصوامت اللاحنكية. (وبكلمات بسيطة فإن الصائت (a) لا يمكن أن يسبق بصوامت لاحنكية ولا يمكن لـ : a السابق على النبر الرئيسي أن يسبق بالصوامت الحنكية). في هذه الحالة. إذن، تلعب السمة الحنكية في ذاتها دوراً في تنظيم اللغة.

يجب أن يبدأ تحليل النظام الفونولوجي، بالضرورة، بتعيين السمات المميزة، لأنه تبين أنها قابلة للمقارنة بصورة تبادلية وصارمة، ذلك أن سمة مميزة ماثلة في النظام الفونولوجي للغة معينة هي مشابهة، بشكل رئيس، للسمة ذاتها عندما تكون جزءاً من نظام آخر. ولكن إذا قارنّا فونيمات لغات مختلفة من دون تحليلها إلى سماتها المميزة فإننا نجازف عندما نساوي بين هذه الكيانات، التي هي في الحقيقة متطابقة في المظهر فقط. فللفونيم (i) مثلاً مضمونٌ فونولوجيٌ مختلفٌ في التركية والروسية والانكليزية الامريكية والتشركسية والالبانية. وكالآتي:

اللغة التركية: i = مغلق، أمامي، لا مدور.

اللغة الانكليزية ـ الاميركية: i = مغلق، أمامي (عزا بلومفيلد Bloom field، الذي وصف التنوع للانكليزية الامريكية المعيارية، الاختلاف بين أحد أزواج النظام أمامي/ خلفي إلى التقابل بين الصائت الأمامي /a/ في الكلمة صدقة (alms) والصائت الخلفي

/â/ في الكلمة شاذ (odd)، وهكذا قصر بلومفيلد القاسم المشترك للعمودين المتقابلين تبادلياً للصوائت على بعد مفرد).

اللغة الروسية: i = مغلق، لا مدور. في مقابل الفونيمين /i/، /u/ فإن الخاصية الثانية الوحيدة التي تمثل دائماً في /u/ ولكنها تغيب دائماً في /i/ هي خاصية التدوير. تحدد الدرجة التقريبية للكيفية الأمامية والخلفية بوساطة السياق. وعليه يصبح الفونيم /u/ بين صامتين حنكيين على مقربة من الصوائت الأمامية، ويميل في كلمات مثل مهمد (L'ul'ka) إلى أن يلفظ مثل (u) في حين أن الفونيم /i/ يكتسب موقعاً خلفياً بعد صوامت لاحنكية.

ويناقش اللغويون ـ في الحالات التي يكون فيها ثمة اختلافٌ كبيرٌ بين صوتين، مثلاً بين (i) الأمامي و (y) الخلفي في اللغة الروسية ـ السؤال عما إذا كان بمقدور هذين الصوتين أن يُفَسَّرا بوصفهما تنوعات للفونيم الواحد نفسه. ويحتار هؤلاء اللغويون بمشكلة ماهية المعيار الحقيقي الذي يحصي Counting صوتين متباينين أو أصوات متباينة بصورة أكثر وضوحاً كفونيم مفرد. لذلك حاولوا أن ينكبّوا ـ على الرغم من عدم النجاح ـ على معيار مستمد من الاستبطان ـ أي الحدس الذاتي لمتكلمي اللغة. ولكن إذا اعتبرنا الفونيم كحزمة من العناصر التمييزية فسينتج، بصورة موضوعية وغير غامضة، أن الصائت الأمامي /i/ والصائت الخلفي /y/ يحققان الفونيم نفسه في اللغة الروسية، طالما أنهما لا يشتركان في علاقة لتقابل مميز، وإن كل واحد منهما يشارك في مجموعة مشتركة من العناصر، أي حزمة من السمات المتمايزة التي تميزها من كل الفونيمات الأخرى لهذه اللغة المعيّنة، فكل واحد منهما هو صائت مغلق وغير مدور. وهكذا فإن الفونيم /i/ يميز الكلمة

(ثور) (Pyk) من كلمات مثل (شجرة الزان) (buk)، (خزان) (bak)، كلمة (جانب) (pok) وكذلك فهو يميز الكلمة: (وجد) (lik) من الكلمات: (فخ) (ljuk)، (اذهب إلى النوم) (ljag) أمرية، (ذهب إلى النوم) (ljog). وقد اكتشف بادوين دي كورتني أن الفونيمَين: الأمامي /i/ والخلفي /y/ يمثلان الفونيم نفسه في اللغة الروسية، ودعاه (i) بالفونيم (المتغير) - على أية حال إن هذا الاسم غير دقيق لأن الفونيم يظل غير متغير في كل تمثلاته، فالفونيم ليس أكثر من حزمة من السمات المتمايزة الثابتة. إذ يجب أن لا يماثل الفونيم بالصوت، على الرغم من أنه ليس خارج الصوت، فهو ماثل بالضرورة في الصوت، متأصل فيه ومطابق له، وهو ما يبقى ثابتاً خلف التنوعات.

يتكون الفونيم الصائت، قيد الدرس، من حزمة من عنصرين متميزين: المغلق واللامدور. إن هذا التأليف ماثل موضوعياً في الصوت الروسي الأمامي (i)، وفي الصوت الخلفي (y) للغة ذاتها. والآن فإن هذه الحزمة تُركَّب، في الوقت نفسه، على صوتين طالما أنها ماثلة في كل واحد منهما، فهي متطابقة عليها بوصفها قيمة تمييزية. هذه القيمة هي جزء من النظام الفونولوجي للغة الروسية، وباختصار هي جزء من اللغة الروسية. يمنح كل عنصر مكون للغة ما، وعلى وجه التخصيص، كل فونيم وكل سمة مميزة قيمة اجتماعية. ينسب الفونيم، موضوع المناقشة، إلى نموذج، إلى مجموعة معايير تدعى (اللغة الروسية)، ويفترض بهذا الفونيم أن يكون متحققاً في أي فعل كلامي، في كل (i) وفي كل (y) يلفظه أشخاص يتكلمون الروسية. وكيما تنجز تلك الأصوات وظيفتها ينبغي لمجموعة العنصرين التمييزيين - المغلق واللامدور، أي

بصورة دقيقة، الفونيم الذي نحن بصدده ـ أن تكون ماثلة في كل (i) وفي كل (y) يصدران من أناس يتكلمون الروسية. ولكي نجعل المشكلة أكثر وضوحاً فلا بد من أن نترك، للحظة، مجال القيم اللغوية وننظر، بدلاً من ذلك، إلى ميدان مختلف من القيم. لنتخيل ثلاثة دولارات: الأول ورقي، والآخران قطعتان معدنيتان، إحداهما بالية والأخرى جديدة، لمّاعة. قد يهمل طفل ما القطعة البالية ويدَّخر القطعة الجديدة، أما المختص بدارسة القطع النقدية فقد يصنّفُهما تبعاً للسنة التي سُكّتا فيها. بيد أن لتلك الدولارات الثلاثة، بالنسبة للجمهور على الأغلب، القيمة التداولية ذاتها.

أو ربما نستطيع أن نأخذ مثالاً مختلفاً، وهذه المرة من علم الموسيقى Musicology، نحن نعلم أن العناصر التي يتطلبها شخص أصلي لتأمل لَحْنَيْنِ لميلوديا افريقية على أنهما نسختان للقطعة الواحدة ذاتها التي يمكن أن يسمعهما ملاحظ أوربي على أنهما تقابلان مُختلفان وبالعكس فإن كل الجهود التي يبذلها هذا الملاحظ لإعادة إنتاج ميلوديا معينة سوف تبدو خطأ بالنسبة للشخص الأصلي.

تنشأ تلك الأحكام المختلفة من الاختلافات بين نظامي القيم الموسيقية. فما هو ضروري وثابت لأحد الحكمين هو مجرد تنوع عرضي وفارغ. إن وصف نظام للقيم وتصنيف عناصره يمكن أن يتم فقط من منظور نظامنا الخاص، أي من منظور المهمات التي ينجزها النظام ـ ومن وجهة نظر القيمة النقدية فإن العملات لا يمكن أن تنقسم على لامعة وبالية، والشيء نفسه، فالمرء لا يمكنه أن يعزو لمكونات نظام موسيقي، أو لفونيمات نظام فونولوجي، كيفيات ملائمة لنظام مختلف تماماً. وفي ضوء هذا سوف ننتقل إلى اختبار نظام الصوامت في اللغة الفرنسية.

لكي نكون في وضع لنصف النظام الفونولوجي للغة معينة، بتعبير آخر، لنصف نظام الوسائل الصوتية التي تقوم بتمييز كلمات المعاني المختلفة، يجب ـ أولاً ـ أن نعين ونصنف كل عناصر النظام. ولكي نقوم بهذا العمل ـ كما بيّنا ذلك من قبل ـ فإنه من الضروري أن نتأمل كل هذه العناصر من وجهة نظر وظائفها في اللغة المعينة. وإن أية محاولة في الوصف الخارجي الخالص للعناصر الصوتية للغة، وأية محاولة لتصنيف هذه العناصر بمعزل عن وظائفها ضمن اللغة التي نحن بصددها، وأية محاولة لوصف وتصنيف أصوات لغة ما من دون الأخذ بنظر الاعتبار علاقتها بالمعنى، إن هذه المحاولات محكوم عليها بالإخفاق حتماً. إن عناصر نظامين فونولوجيين مختلفين ـ حتى لو كانا متشابهين خارجياً ـ تستطيع أن تنجز ـ بصورة تامة ـ مهمات مختلفة في النظامين، وكنتيجة لتباينها في تأدية وظيفة ما فإن مواقعها في الأنظمة الخاصة، يمكن أن تتنوع من لغة إلى أخرى.

لننظر ـ في ضوء هذا ـ إلى نظام الصوامت في اللغة الفرنسية الحديثة، ولكي نقتصد بالزمن، سوف ندع جانباً هذه الفونيمات التي تحتل موقعاً يتوسط بين نظام الصوامت consonant ونظام الصوائت، أي الأصوات الرخيمة liquids. إن علم الصوت الذي أخذ باعتباره ابتداء موضع نطق كل صامت، وصل ـ تقريباً ـ إلى الجدول الآتي:

شفاهية bilabial	شفوية أسنانية labiodental	أسلية apical	لثوية alveolar	لثوية حنكية alveolopalatal	حنكية أمامية prepalatal	طبقية velar	
m		n			n		الاصوات الانفيه nasal
p\b		t\d				k\g	الاصوات الانسدبادية occlusive
	f\v		s\z	š\ž			الاصوات الاحتكاكية constrictive

يمكن لكل هذه الصوامت أن تقوم بتمييز الكلمات بمعان مختلفة. إنها ـ إذن ـ تميز الفونيمات، ومهمتنا هي تحليلها، وبعبارة أخرى، فإن مهمتنا هي تعيين السمات المميزة التي تتشكل منها كل هذه الفونيمات، تعيين الكيفيات المميزة التي يمكن أن يرد إليها كل فونيم من الفونيمات. ويمكننا أن نرى أولاً «تقابلاً أساسياً» بين الصوامت الأنفية من جهة أولى والصوامت اللاأنفية non nasal أو الصوامت الفموية oral من جهة ثانية، إن للصوامت الأنفية ـ إضافة إلى الجرس الفموي ـ جرساً أنفياً حيث يفتقد في الصوامت الفموية. ويمكن أن تكون الصوامت الفموية منقسمة ـ تباعاً ـ على قسمين: الصوامت الانسدادية occlusive والصوامت الاحتكاكية constrictive، وتضع الصوامت الانسدادية الانغلاق ciosure الكامل تجاه الانغلاق غير الكامل للصوامت الاحتكاكية وهكذا، فإن اختبار الوظيفة الفونولوجية لصوامت اللغة الفرنسية، يوصلنا مباشرة إلى التصنيف المتفرع ثنائياً dichotomous للفونيمات:

الصوامت الأنفية nasals

الصوامت الفموية orals	الصوامت الانسدادية occlusives
	الصوامت الاحتكاكية constrictives

وعلاوة على ذلك، فإن كل الصوامت الفموية لهذا النظام، كلّ من الصوامت الانسدادية والصوامت الاحتكاكية تمثل تقابلاً ثنائياً: حضور وغياب الصوت. فيقابل (g) المجهور (k) المهموس، ويقابل (Ž) هناك (Š)، ويقابل (d) هناك (t) وهكذا.

إذا ما نظرنا ضمن كل السلسلة (الأنفية والانسدادية والاحتكاكية) نلاحظ في كل واحد منها ثلاثة مواضع للنطق، وتؤدي هذه المواضع دوراً تمييزياً ضمنها. وقد ثبت أنه من المستحيل اختزال السلسة الثلاثية إلى قاسم مشترك لأن كل موضع للنطق يُؤخذ بنظر الاعتبار في ذاته، أو لأن بضع مواضع للنطق تتوحد في أصناف نظامية عليا من دون إشارة إلى معيار مستمد من النظام قيد الدرس.

وعلى سبيل المثال، فإن الصوامت الطبقية والحنكية الأمامية عزلت أحدها عن الآخر على الرغم من أن هذا التمييز ذو دلالة فقط بالنسبة للغات ذات الصوامت التي تختلف ـ فقط ـ في كونها صوامت طبقية أو صوامت حنكية أمامية، وتكون كل السمات الأخرى متساوية. وعلى سبيل المثال، فإن ثمة صوات إنسدادية في اللغة التشيكية والسلوفاكية والهنغارية، حيث يختلف أحدها عن الآخر ـ فقط ـ في تقابل نطق الصوامت الطبقية مع

نطق الصوامت الحنكية الأمامية: الصامت /k/ بتقابل ـ من جهة ـ مع الصامت /t̬/ من جهة أخرى. وفيما تميز اللغات الآسيوية والإفريقية بين الصوامت الطبقية الأنفية velar nasal والصوامت الحنكية الأمامية الأنفية prepalatal nasal، فإن للغات الأوروبية ـ على الأكثر ـ أمّا صوامت طبقية أنفية (كما في اللغة الانجليزية) أو صوامت حنكية أمامية أنفية (كما في اللغة الفرنسية) مثل /sin/ sing/ في اللغة الانجليزية و /sin̬/signe/ في اللغة الفرنسية).

وعلى العموم، فليس ثمة ـ في اللغة الفرنسية ـ صوامت ـ إذا بقيت من دون تعديل ـ يتميز أحدها من الآخر بوساطة التقابل ـ فحسب ـ بين نطق الصوامت الطبقية ونطق الصوامت الحنكية الأمامية، وبالتالي، يمكننا أن نوحّد ـ وفي الحقيقة يجب أن نوحّد ـ الصوامت الطبقية والصوامت الحنكية الأمامية في اللغة الفرنسية في مقولة واحدة، هي مقولة الصوامت الطبقية الحنكية velopalatal التي تنطق بالحنك سواء أكان الحنك الرخو أم الحنك الصلب.

\ عادة، لا توحد الصوامت الأسلية apical والصوامت الصفيرية sibilant المهسهسة hissing هي فحسب في صنف واحد، بل ـ كذلك ـ توحد في صنف واحد الصوامت الساكنة hushing والصوامت اللثوية الحنكية alveolopalatal الاحتكاكية fricative، وهو صنف الصوامت الأسنانية dental أو صنف الصوامت anterolingual. وعلى سبيل المثال، يميز بول باسّي paul passy في كتيبه «أصوات اللغة الفرنسية les sons du francais» الصوامت الحلقية والحنكية والذلقة lingual والشفوية labial. وينشيء المؤلف صنف الصوامت الذلقة (في الحقيقة الصوامت anterolingual) التي يتضمن نطقها ـ ابتداءً ـ الجزء الأمامي من اللسان ـ . وليس بول

باسي المؤلف الوحيد الذي خلط في تصنيفه أدوار العضو الفعّال (اللسان) وأدوار العضو السلبي (الحنك الصلب أو الحنك الرخو). وفي تصنيفه للصوامت الذولقية، لم يضمن بول باسي الصوامت « t ،d ،n ،s ،z» فحسب، بل كذلك ضمن الصامتين اللثويين. الحنكيين الساكنين «š،ž».

والآن، فإن هذه الممارسة الشائعة حتى الآن لتوحيد الصوامت اللثوية الحنكية الاحتكاكية والصوامت الصفيرية في صنف واحد مشترك، أوضحت غياب المقترب الوظيفي، لقد عجز هذا التصنيف عن إدراك التقابل بين الصامتين الساكنين الصفيريين (š،ž) والصامتين المهسهسين الصفيرين (s، z)، واعتمد ـ بدلاً من ذلك ـ على المعيار الاعتباطي ـ الذي هو في هذه الحالة سطحي وغير مثمر ـ لتمييز تلك الصوامت التي تنطق في منطقة بين قمة اللثة وقوس الحنك، أي التمييز بين الصوامت اللثوية الحنكية (الساكنة) من تلك الصوامت التي تشبه ـ بالضبط ـ الصوامت الحنكية. وعلى أية حال، فإن الصوامت الساكنة تعود ـ في الواقع ـ إلى صنف الصوامت الحنكية وإلى صنف النظام الأعلى للصوامت الطبقية الحنكية.

وإذا سألنا أنفسنا ـ بدلاً من التركيز، على نحو أعمى، على المواضع المتنوعة للنطق والمأخوذة بنظر الاعتبار في ذاتها ـ عما هي النتائج الأساسية التي تطابق هذه الاختلافات، فسوف نرى ـ حالاً ـ أن موضع نطق الصوامت الطبقية الحنكية (أو بتعبير آخر، الصوامت المندفعة بعيداً عن المركز centrifugal) تقع خلف حجرة الرنين المنفردة أو المهيمنة، بينما تتموقع مواضع نطق الصوامت الأخرى، أي الصوامت الأنفية والصوامت الشفوية (تجمع

معاً في الصوامت المندفعة نحو المركز (contripetal) بمواجهة حجرة الرنين هذه. إن هذا الاختلاف الأساسي يطابق حقيقة أن للصوامت المندفعة بعيداً عن المركز نطقاً بالغ التفصيل، صوت أكثر إمكانية على الإدراك، وإن للصوامت المندفعة نحو المركز نطقاً أقلّ تفصيلاً وأقل إمكانية على إدراك صوتها. وهكذا، تختلف الصوامت الساكنة الصفيرية عن الصوامت المهسهسة الصفيرية، تماماً، كما تختلف كل الصوامت المندفعة بعيداً عن المركز عن تطابق الصوامت المندفعة نحو المركز، ويتموضع موضع النطق ـ بدقة ـ خلف (أكثر مما هو بمواجهة) حجرة الرنين الفمية buccal المهيمنة وفي الصوت المنطوق بتفصيل بالغ الذي ينتج عن هذا التموضع. إن تشكل السلسة الأنفية يمكن ـ إذن ـ أن يتضح على أنه شبيه ـ تماماً ـ بتشكل سلسلتين فمويتين، وإن مبدأ الانقسام الثنائي ـ بالتالي ـ قابل، لتطبيق على النظام الكلي للصوامت في اللغة الفرنسية.

		الصوامت المندفعة بعيداً عن المركز centrifugal	الصوامت المندفعة نحو المركز Centripetal	
			شفوية	أسنانية
أنفية		ŋ	m	n
فموية	انسدادية	k/g	p/d	t/d
	احتكاكية	š/ž	f/v	s/z

تنقسم الصوامت المندفعة نحو المركز على قسمين: صوامت أسنانية وصوامت شفوية. وتقابل حدة acuteness الصوامت الأسنانية خفض gravity الصوامت الشفوية. وتنتج خفض الصوامت الشفوية عن حجرة الرنين الطويلة واللامنقسمة وعن

تقليص الفتحة اللاحقة، في حين تنتج الصوامت الأسنانية بوساطة اللسان الذي يقسم تجويف الفم على حجرتين رنينيتين قصيرتين، ويكون البلعوم ـ الفتحة اللاحقة لتجويف الفم ـ متسعاً. إن كيفية الحدّة للصوامت الأسنانية مستمدة ـ بدقة ـ من هذه الحجرة الرنينية التي تكون مقسمة ومزودة بفتحة واسعة. وهكذا، يمكن أن يكون نظام الصوامت في اللغة الفرنسية متماسكاً ومتساوقاً بشكل تام، حالما ينى تصنيف عناصره المكونة على معيار جوهري.

ليست متتالية الفونيمات تجميعاً آلياً بسيطاً، بل هي بنية توضح علامات إضافية معينة. وعلى سبيل المثال، فإن الفونيم الروسي (i) يتضمن في ذاته فقط عنصرين مختلفين: هما الفونيم المغلق closed والفونيم اللامدوّر unrounded، غير أن تأليف الفونيمات يمكن أن يضيف ـ بامتياز ـ إلى هذه الكيفيات المتميزة، بعض الخصائص السياقية أي أن الصفة «خلفي back» (y) حين اتباع الصامت الذي لا ينطق حنكياً non palatalised والصفة «أمامي front» (i) في كل التآليف الأخرى. وقد رأينا ـ سابقاً ـ أن في نظام الصوامت في اللغة الفرنسية ـ فونيماً واحداً فقط مهموساً وانسدادياً من بين الفونيمات الطبقية الحنكية، وهو الفونيم /k/ الذي يتخذ ـ طبقاً لسياقه ـ خاصيات تأليفية متنوعة، ولا سيما الصفة الخلفية كثيراً قبل الصوائت الخلفية والصفة الأمامية أكثر قبل الصوائت الأمامية، وخاصة قبل i. ويكفي أن نقارن «cou رقبة» و «qui الذي» لكي ندرك ـ بوضوح ـ هذا الفرق.

وفي بعض اللغات، تكون الاختلافات بين التنوعات التأليفية لافتة للنظر كثيراً وعلى سبيل المثال، يتحقق الفونيم المتطابق في اللغة الهندية ـ الإيرانية قبل الصائت الخلفي مثل /k/ الحلقي المغلق

وقبل الصائت الأمامي مثل /c/ الساكن الانفجاري الاحتكاكي affricate. وطالما أنه لا التقابل بين الصوامت البسيطة الانسدادية والصوامت الانفجارية الاحتكاكية، ولا التقابل بين الصوامت الطبقية والصوامت اللثوية الحنكية ـ يحوزان على أية قيمة تميزية في هذه اللغة، فإن التفاوت بين التنوعين التأليفيين /k/ و /c/ لا ينقص من وحدة الفونيم.

إن كل شيء يقال حول تأليف الفونيمات المتتابعة، يمكن أن يطبق ـ بشكل متساوٍ ـ على التأليف المتزامن للخصائص المتميزة في الفونيمات. ولا يمكن ـ كذلك ـ عدّ الفونيم تجميعاً آلياً بسيطاً للعناصر المختلفة التي يتألف منها. إن الفونيم ـ أيضاً ـ بنية تظهر خصائص تأليفية معينة. وعلى سبيل المثال، فإن نظام الصوامت الطبقية الحنكية ـ أو بتعبير آخر الخاصية المندفعة بعيداً عن المركز ـ في نظام الصوامت في اللغة الفرنسية، تتخذ تنوعاً من الخاصيات التأليفية طبقاً للحزمة التي يعود إليها هذا العنصر التمييزي. وهكذا، حينما تؤلف مع سمة انسدادية فإنها تتخذ سمة طبقية (k/g)، وعندما تؤلف مع سمة احتكاكية فإنها تتخذ خاصية ساكنة (š/ž).

وبما أن التقابل ـ في هذه اللغة ـ بين الخاصية الطبقية والخاصية الساكنة لا يكون ذا قيمة تمييزية، فإن هذا التفاوت بين التنوعين لا ينتقص من وحدة السمة التمييزية.

وعلى العموم، فإن ثمة خمسة تقابلات لسمات تمييزية فعّالة في نظام الصوامت في اللغة الفرنسية:

1 ـ حضور أو غياب السمة الأنفية nasality.

2 ـ ترافق الانغلاق الكامل أو الانغلاق غير الكامل مع احتكاك الهواء الضعيف أو القوي.

3 ـ ترافق شدة tense أو رخاوة lax النطق مع حضور الجهر voice أو غيابه.

4 ـ الخاصية المندفعة بعيداً عن المركز أو الخاصية المندفعة نحو المركز.

5 ـ حجرة الرنين الفمية buccal غير المقسمة أو المقسمة.

إن كل المطلوب من هذه التقابلات الخمسة هو تكوين الصوامت الخمسة عشر التي ناقشناها على وجه الضبط. وإن هذه التقابلات الخمسة للكيفيات تكفي لتأدية وظيفة نظام الصوامت الكلّي في اللغة الفرنسية، وإن لهذا النظام، في اللغة الفرنسية، مهمة وظيفية جديرة بالاعتبار: وباختصار، فإن نظام التقابلات الصامتية في اللغة الفرنسية هو الذي يوظف على نطاق واسع جداً في تمييز الكلمات، وإن النظام الكلي ينبى على خمسة سمات تقابلية فقط. وكما بيّنا في بداية هذه المحاضرات، فقد كانت المشكلة هي أن استخلاص العناصر الصوتية الأساسية الممنوحة وظيفة تمييز المعنى sense-discriminating function. إن هذه العناصر هي ـ بدقة ـ سمات تمييزية، هي الكيفيات التي تعزل عبر تفكيك ـ أو لتستخدم تعبيراً استعارياً، عبر تقطيع ـ الفونيم إلى كمّاته quanta. إن الصيغة التي سعى سوسير إلى تطبيقها على الفونيمات، إنما هي صيغة قابلة للتطبيق على العناصر التمييزية فحسب، إن العناصر التمييزية هي ـ بوضوح وبصورة استثنائية ـ كيانات تقابلية ونسبية وسلبية.

إن مهمتنا الراهنة هي إعطاء وصف أكثر تفصيلاً للعلاقة بين السمات المتميزة والفونيم ورسم نموذج للأخير. ويمكننا أن نبدأ بالسؤال التالي:

كيف حدث أن كانت الخصائص المميزة وتقابلاتها مهملة تقريباً، وكيف بقي الفونيم بعد كياناً غير قابل للانقسام بوصفة الكيان الفونولوجي الأكثر صغراً وبساطة؟

ويبدو أن ثمة سببين حاسمين لهذا الاستكناه. إن السبب الأول هو أن البحث الفونولوجي ـ ولا سيما تحليل الفونيمات ـ كان قد تحرر، شيئاً فشيئاً، من القوة غير المحدودة للمذهب التجريبي. وقد كان الهدف ـ لوقت طويل ـ هو استبدال الصورة المادية الخالصة للصوت بالمفهوم الوظيفي للفونيم. وكان من المعتاد جداً تسجيل مواضع النطق بطريقة آلية خالصة حيث كان من المستحيل إلقاء الضوء على قضية الخصائص كونها وثيقة الصلة بكل فونيم. وكانت بعض التقابلات الثنائية واضحة تماماً، غير أن بعضها الآخر بقي مختفياً. وقد كانت الصوامت، بشكل خاص، التي ميزت بوساطة تعيين أماكن نطقها، تند عن أي تصنيف ثنائي.

أما العائق الثاني ـ وهو ليس أقل جدية ـ فقد اعترض تحليل الفونيم إلى مقوماته ثمة قانون، صاغه سوسير وعدّه أحد مبدأين أساسيين يحددان الإشارة اللغوية، فقد قرر الصفة الخطية linear للدال: حيث عزيت هذه الصفة إلى الشكل الخارجي للإشارات اللغوية كلّها. وكما هو مقرر في محاضرة سوسير، «يتكشف الدال ـ كونه ذا طبيعة سمعية ـ خلال الزمن فحسب، وإن مميزاته هي تلك التي تنشأ خلال الزمن:

أ ـ أن له امتداداً.

ب ـ وإن هذا الامتداد قابل للقياس ببعد وحيد: هو الخط». وربما يكون المرء مندهشاً لأن هذا المبدأ أصبح مرسّخاً بقوة كبيرة بين علماء مدرسة جينيف أنفسهم الذين نجحوا في أن يظهروا

ـ بوضوح ـ الصفة اللاخطية للجانب الآخر من الإشارات اللغوية، وهو لا خطية non-linearity أو لا نظمية dystaxia المدلول. وعلى سبيل المثال فإن شارل بالي charles Bally ـ التلميذ المخلص لسوسير ـ رفض بقوة الاعتقاد الساذج بأن الخطاب إنما هو مجرد خط اعتيادي وأن الخطوط مجرد تراصف بصورة تتابعية وقد بين في كتابه «علم اللغة العام وعلم اللغة الفرنسية» أنه من الممكن للإشارة أن تتوفر على مدلولات مختلفة معاً وفي وقت واحد وفي النقطة نفسها. وقد اعتقد بالي أن هناك اتفاقاً conurrence(cumul الزائدة المتعددة الوظائف) في المدلولات حينما يتضمن الدال المفرد واللامجزأ بضع قيم» حيث يمكن أن تكون محللة بوضوح بموجب مجموعة من التقابلات. وهكذا، فإن اللاحقة oŸ ـ للفعل اللاتيني am-ō تتضمن مفهوم المتكلم first person في تقابل مع لاحقة الفعل am-ās، وإن مفهوم المفرد في تقابل مع اللاحقة amāmus، وإن مفهوم المضارع في تقابل مع لاحقه amābam وهكذا.

والآن، فيما يتصل بالجانب الصوتي للقيمة اللغوية، أي في مجال الدال، فقد كنّا بينا ـ بطريقة مشابهة ـ ظاهرة مماثلة تماماً يمكن أن تدعى اتفاق الدوال. وهكذا، فإن الفونيم الفرنسي /b/ ذا النطق الرخو Lax نسبياً «مع جهر» في تقابل مع الفونيم والشديد tense /p/، وهو أي الفونيم /b/ الانسدادي (مع احتكاك ضعيف) في تقابل مع /V/ ، وهو أي الفونيم /b/ أيضاً الذي لا يتضمن رنيناً أنفياً في تقابل مع /m/، وهو ذو جرس خفيض (الناتج عن الجهاز الران اللامقسم) في تقابل مع /d/ ، وهكذا دواليك. لقد كان بالي نفسه ـ من الناحية النظرية ـ ميّالاً لأن يبحث عن ظاهرة

ما في النظام الفونولوجي تماثل اتفاق المدلولات، ولكن عائقاً معيناً وقف في طريقه. فقد علمتنا محاضرات سوسير أن «الطبيعة الخطية للغة تحول دون إمكانية تلفظ عنصرين في الوقت نفسه»، وقد توصل بالي ـ المخلص لمذهب أستاذه ـ إلى فرضية تتمثل في أنه من المستحيل لفظ صوتين في الوقت نفسه! إن هذه الحجة هو مغالطة منطقية petitio principii، نظراً لأن الصوت هنا يعني مجموعة كلية من الإشارات النطقية التي تقدم في وقت واحد، أو ـ بالأحرى ـ التي نعتقد أنها تقدم في وقت واحد وبتعبير آخر في تحديد ما يصنعه الصوت، فإنه من المستحيل لوحدتين من هذا النوع أن يكونا منطوقتين في الوقت نفسه. فلا يمكن لفونيمين أن يصدرا في وقت واحد. بيد أنه من الممكن تماماً إصدار بضع سمات متميزة في الوقت نفسه. وليست هذه الإمكانية فحسب بل إمكانية ما تعمله طبيعياً، طالما أن الفونيمات هي كيانات معقدة.

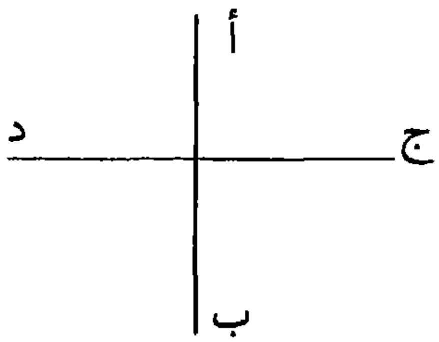
لقد ألمع سوسير نفسه إلى مشكلة الكيفيات المتميزة حينما قرر بنفسه مهمة التطابق وبتعبيره الخاص، ـ «العناصر التمييزية للفونيمات»، غير أنه لم يكن قادراً على تحليلها بسبب مسلمته الخاصة ـ في المقام الأول ـ التي تتعلق بـ «الطبيعة الخطية للدال». وطبقاً لسوسير فإن وحدة الفعل النطقي تحول دون إمكانية تجميع «العناصر الدلالية المختلفة في النقطة الواحدة نفسها». بيد أن وحدة الفعل النطقي ـ في المقام الأول ـ ليس لها سبيل لتمنع تعقيدها. ومن هذه الناحية، يمكن مقارنتها بالوتر chord الموسيقي الذي هو ـ في وقت واحد ـ وحدة و «حزمة» من الوحدات وقد تأمل ـ سابقاً ـ بادوين دي كورتيني Baudouin de Courtenay

هذا التشابه الجزئي. وقد لاحظ سوسير نفسه ـ في سياق آخر ـ أن كل فونيم يورد بضعة «عوامل كيما تؤدي دورها»، وإن كل فونيم ذو «قيمة تمييزية ما». وعلى نحو أكثر أهمية، كيف عيّن سوسير هوية الفعل النطقي؟ يصرح سوسير أن سلسلة الصوت تنقسم على أجزاء، ويميز كل جزء بوساطة وحدة للانطباع الاكوستيكي، وإن الفعل النطقي المماثل لهذه الوحدة يعدّ ـ بفضل هذا التماثل ـ وحدة كذلك.

لقد حذر سوسير ـ في مناسبات كثيرة ـ أن اللسانيات، وجميع العلوم التي تعني بالقيم، يجب أن تكون حذرة جداً في التحقق من المحاور التي تتموضع فيها الكيانات قيد الدرس. وقد ميز سوسير ـ بوضوح ـ محورين:

«1 ـ محور التزامن simultaneity (أ ب) الذي يعنى بالعلاقات بين الأشياء المتواجدة معاً، ويقصي أي تغيير يحدث بوساطة الزمن.

2 ـ محور التعاقب successin (ج د)».



على أيّ محور أنشأ سوسير وحدة الفعل النطقي ولا اختزاليته؟ وكما رأينا سابقاً أنه أنشأ هذا على محور التعاقب. يقول سوسير «على أية حال يبقى الصوت ـ في سلسلة الكلام الممتدة

والمدركة مباشرة ـ ذا هوية ما دام المرء يمتلك انطباعاً متجانساً عن شيء ما، فإن الصوت حينذاك يكون صوتاً مفرداً».

يعد زمن النطق، المماثل لهذا الزمن الاكوستيكي المتجانس، وحدوي.

وبسبب الطبيعة المتجانسة للزمن الاكوستيكي، فإن زمن النطق المماثل له يمنح ـ على حد سواء ـ قيمة وحدة واحدة.

إن هذه هي وحدة الفعل النطقي. وهي ـ إذن ـ مسألة الوحدة في الزمن ومسألة التجانس في الزمن، ومسألة اللاإختزالية في الزمن. إن مثل هذه الظواهر نظمت على محور التعاقب، ولن ينتج عنها ما يتعلق بوحدة وتجانس ولا اختزالية الفعل النطقي والفونيم على محور التزامن.

وبناء على ذلك، لا تستطيع الوقائع التي أشار إليها سوسير أن تقدم دعماً ـ على الإطلاق للطبيعة الخطية للدال، ولا تستطيع أن ترفض تعددية السمات المتميزة.

إن التصور السوسيري لخطية الدال ـ التصور الذي كان مقبولاً ضمناً ومطبقاً على أغلبية الأعمال في اللسانيات ـ غريب تماماً في ضوء الحقيقة القائلة بأن سوسير أدرك بصورة إيجابية العملية الكلية الوجود في اللغة، لكلا المحورين، لكلا هذين النظامين للتناسق. يخبرنا سوسير أن دور هذا النظام المزدوج وأن مجموعة من العلاقات المألوفة هي التي تكون اللغة، وهي التي تتحكم في عمليتها.

وسواء أكانت المسألة مسألة كلمات ضمن وحدة بنائية، أي مسألة مورفيمات ضمن كلمة ما، أو مسألة فونيمات ضمن مورفيم

ما، فإنها ـ دائماً ـ مسألة أشياء مرتبة على تعاقب أحدها الآخر، أي مرتبة على محور التعاقب. ومن جانب آخر، تعود كل من هذه الوحدات في اللغة ـ بالضرورة ـ إلى نظام من القيم المتشابهة والمتقابلة.

إن هذه السلسلة من القيم المتوافقة* interdependent ترتب على محور التزامن وهكذا، ربما تكون amō ـ على محور التعاقب ـ مرتبطة مع patriam، أو ـ على نحو أكثر دقة ـ يوحّد الفعل المتعدي transitive verb مع حالة المفعولية accusative للاسم، وعلى محور التزامن، تكون amō مرتبطة ـ من جهة أولى ـ مع amās، amāmus، amabam.. إلخ، وتكون مرتبطة ـ من جهة ثانية ـ مع ōdi، invideō.. إلخ. وعلى محور التعاقب يكون الفونيم /u/ في الكلمة «sourd أصم» مرتبطاً مع الفونيم /s/ الذي يرد قبله ومع الفونيم /r/ الذي يتبعه، أما على محور التزامن فيكون حرف العلة هذا /u/ ذا علاقة بأي فونيم آخر يمكن أن يحتلّ الموضع نفسه، وعلى سبيل المثال، يكون الفونيم /u/ ذا علاقة بالفونيم /i/ في «sire سيدي» أو /u/ في «sûr واثق» أو /o/ في «sort قدر أو حصة»، أو /ö/في «soeur أخت».

وفي محاولة لدعم مبدأ الدال الخطّي، لاحظ سوسير أن العلاقة على محور التعاقب هي علاقة حضور praesentia: «إنها تحدث بين كلمتين أو أكثر حيث تكون كلها حاضرة في المتتالية الفعلية»، في حين ـ على محور التزامن ـ «ترتبط الكلمات في غياب absentia في متتالية افتراضية متعلقة بالذاكرة»، بيد أن هذه المتتالية

* المتوافقة: التي يتوقف بعضها على البعض الآخر. المترجم.

الافتراضية، هذا النظام الكامن، هي التي تزودنا بالتقابلات التي تكون ضرورية لتكوين الإشارة. لنتأمل الآن ومن جديد الفعل amo. فمن الطبيعي ألاّ تكون الأشكال التي يقابلها الفعل جزءاً من هذه الإشارة، فالإشكال في غياب، ولكن فيما يتعلق بالكيفيات المتقابلة. تلك التي تكون محايثة في هذه الإشارة، إنها في حضور، وهي التي تكون الإشارة. وفي المثال الحالي، فإنها مسألة المتكلم المفرد، المضارع... إلخ. ولو تأملنا المكوّن الصائتي للكلمة «sourd» ـ وهو الفونيم /u/ ـ فسوف نرى هنا ـ مرة ثانية ـ إن الفونيمات الصائتة الأخرى غائبة عن المتتالية الفعلية، بيد أنه بسبب حضوره في اللغة، وبسبب إمكانية استبداله بفونيم معين، فإن هذا الأخير يحتوي على الكيفيات المتقابلة التي تكونه. إن كل فونيم يؤلف ـ في الحضور ـ حزمة من السمات المتميزة.

إن هذا يساوي القول بأن الدوال تفيد ـ في الحقيقة ـ من كلا المحورين، وإن مكوناتها تشكل سلسلة ليس على محور التعاقب فقط، بل وعلى محور التزامن على حدّ سواء. وكما أشار سوسير إلى أن المتتالية على محور التعاقب تبدو جلية حالما تكون العناصر المتتابعة متمثلة في كتابة وفي خط من الإشارات المكتوبة ممتد مكانياً يستبدل بالتعاقب زمانياً. ويكون هذا الخط في كتابتنا خطاً أفقياً. غير أنه يمكن للكتابة أن تمثل ـ بصورة جيدة وعلى حد سواء ـ محور التزامن بوساطة استبدال خط عمودي للإشارات المميزة بتزامن الكيفيات المتميزة. ولنتأمل ـ على سبيل المثال ـ الإشارات المميزة التي تكتب أعلى وأسفل الرسائل. وفي التدوين الفونولوجي، يمكن أن تكون كل سمة متميزة مكتوبة كإشارة واحدة وتزامن السمات، أي كل فونيم ـ يمكن أن يمثل على طول

خط عمودي في تقليد ـ بعد إجراء جميع التغييرات الضرورية ـ تدوين الأوتار الموسيقية.

وعلى محور التزامن، يتكشف الفونيم ـ بوصفه حزمة من السمات المتميزة ـ عن «امتداد» إذا جاز التعبير.

ولكن، كيف يتصرف الفونيم على محور التعاقب؟

وبالنسبة لسوسير، تكون كل مجموعة من الفونيمات خطية، وكل فونيم يؤخذ بمفرده يكون مشابهاً للنقطة. وطبقاً للمحاضرات، فإن الفونيم «جزء غير قابل للاختزال» حيث «يمكن أن ينظر إليه ـ بتجرد ـ خارج الزمن». وفي حالة رفض هذا المبدأ يظهر الفونيم ـ ليس فقط على محور التزامن، بل كذلك على محور التعاقب ـ امتداداً وليس نقطة. ولنحاول أن نبرهن على هذا!

لقد كان سوسير مدركاً أنه يمكن أن يكون للفونيمات مدد durations متفاوتة، بيد أنه التجانس الكيفي وليس التساوي الكمّي الذي بدا له أنه يحدد وحدة الفونيم.

يقول سوسير: «إن الشيء المهم ليس مدته (الفونيم) في النغمات بل هو نوعية الانطباع».

يحدث التمييز ـ في بعض اللغات ـ بين الصوائت القصيرة والصوائت الطويلة UU = ـ) فإذا كان جزءاً صائت طويل متجانسين فليس ثمة مشكلة. ففي هذه الحالة تكون وحدة الفونيم جلية. ولكن تأمل ـ على سبيل المثال ـ الصوائت الطويلة في اللغة الاغريقية القديمة. فقد كانت تلفظ مع تنغيمين متميزين تماماً، يدعى الأول التنغيم الحاد acute ويدعى الثاني تنغيم

السيركومفلكس* circumflex وفي الحالة الأولى كانت المورا mora الثانية للصائت أعلى من الأول، أما في الحالة الثانية فقد كانت - على العكس - المورا mora** الأولى التي لها النغمة الأعلى. حينذاك - وفي كلتا الحالتين - كانت المورا الأولى - النصف الأول من الصائت الطويل - مختلفة عن المورا الثانية وعلى الرغم من ذلك، فإن اقتراح سوسير أن الوحدة الكيفية للفونيم التي هي حاسمة، بقي مشروعاً في هذه الحالة أن صائتي المورا morae في الإغريقية القديمة، سواء أكانا تحت التنغيم الحادّ أم تحت تنغيم السيركومفلكس، يمثلان فونيماً مفرداً فقط. إن السمات المتأصلة في كل مورا متطابقة وفيما يتعلق باختلافها بصدد النغمة فإن هذا ليس مسألة لكيفية زمنية ما، بل مسألة لصعود أو هبوط في النغمة، أي مسألة العلاقة على محور الزمن، على محور التعاقب ويتم الحصول على قيمة المورا العليا أو السفلى عبر مقارنة اثنتين من المورا متعاقبتين. إن كل هذه الخاصيات - الموصوفة بالعروضية - تتميز من السمات التمييزية المتأصلة في الفونيم ويتم ذلك، على نحو دقيق، عبر الحقيقة القائلة بأن الأول يؤدي وظيفة على محور للتعاقب. إنها - دائماً - علاقات تتأسس على المحور الزمني، على متتالية الوحدات المتعاقبة. وعلى سبيل المثال، فإن النبر خاصية تفترض مقدماً - في متتالية فعلية - تقابلاً بين الوحدات ذات النبر وتلك الوحدات الخالية منه. ولا يمكن أن تكون الكلمة الأحادية المقطع mono syllable والمنعزلة منبورة ولا غير منبورة.

---

* السيركومفلكس Circumflex: علامة على هيئة ٨ توضع فوق الصوائت. المترجم.

** المورا mora: وحدة قياس الطول الصوتي. المترجم.

أو لنأخذ مثالاً آخر: تقابل اللغة الفونيمات المقطعية، أي أن الفونيمات التي تشكل مقاطع وتؤدي وظيفة بوصفها حافات مقطعية تقابل الفونيمات المجردة من هذه الوظيفة والآن، فإن هذا التقابل بين الفونيمات المقطعية والفونيمات اللامقطعية يعمل على محور التعاقب. إنه يفترض مقدماً سلسلة فعلية من الفونيمات، إنه ليس أكثر من علاقة بين الفونيمات المتتابعة في متتالية ما. إن هذا التقابل غير قابل للتطبيق على الفونيمات بصورة منعزلة. من الواضح على نحو مباشر ـ إن تقابلات الكم ـ التقابل بين الطول والقصر، والتقابل بين زوج المورا ومفردها، والتقابل بين الخط وما يشبه النقطة ـ تتأسس ـ ـ بالضرورة ـ على محور التعاقب. وباختصار، فإن الفونيم مرتبط بهذا المحور بوساطة الخصائص العروضية. ومن هنا، فسوف يكون من الخطأ اعتبار الفونيم وحدة غير قابلة للاختزال ـ بالضرورة ـ على محور التعاقب. وهكذا، فإن صائتي المورا يرفضان ـ بوضوح ـ الفرضية التي ترى أن الفونيم غير قابل للتفكيك ـ على هذا المحور ـ إلى عناصر فونولوجية أصغر.

وإذا ما أخذنا اثنتين من المورا لتكونا فونيماً مفرداً، فسوف يتأسس هذا الفونيم على حقيقة تماثلهما على محور التزامن:

closed	مغلق	closed	مغلق
front	أمامي	front	أمامي
unrounded	غير مدور	unrounded	غير مدور
Ĭ	+	Ĭ	Ī

وإذا أخذنا بضع سمات متميزة لتكون فونيماً مفرداً، فإن هذا

يتأسس على حقيقة أنها تماثل وحدة على محور التعاقب. إن المورا هي شبه نقطة وغير قابلة للاختزال، على محور التعاقب، والسمة المتميزة هي شبه نقطة وغير قابلة للاختزال، على محور التزامن. وبتعبير آخر، فإن المورا هي الوحدة التي لا يمكن أن تكون منقسمة على وحدات أصغر على محور التزامن. والسمة المتميزة هي وحدة لا يمكن أن تكون منقسمة على وحدات أكثر تحديداً على محور التزامن. وفيما يتعلق بالفونيم، فإنه وحدة ذات بعدين حيث لا يمكن أن تكون منقسمة على وحدات ثنائية البعد أصغر، إنه يعمل على المحورين، وهكذا، فهو الوحدة الفونولوجية الأصغر مع المحورين.

إن النظرة التي ترى أن الفونيم في ذاته ـ وبصورة أكثر عمومية، الإشارة اللغوية واللغة ككل ـ زمني، إنما هي مسوّغة ـ فقط ـ بقدر ما يكون الحديث عن الزمن الفيزيائي القابل للقياس. بيد أن الزمن ـ بوصفه علاقة ـ يؤدي دوراً أساسياً في نظام القيم اللغوية، بدءاً من اللغة جملة وحتّى الفونيم البسيط. وبالتسليم بأن لعلم اللغة قيماً بوصفها موضوعاً له، فإن الاتجاه السوسيري يعجز عن إدراك حقيقة أن عامل الزمن في نظام قيم ما هو ذاته يصبح قيمة. ولا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار دور الزمن في اللغة حيث يتكشف عن قيمة تكوينية للأخيرة (اللغة)، أي يتكشف عن كونه قيمة لغوية. لقد قررنا نموذج الفونيم، وفي ضوء هذا النموذج ـ أصبحنا قادرين على إلقاء نظرة جديدة على مبدأ خطية الدال.

وفي ضوء هذا النموذج نفسه، يستطيع المرء ـ كذلك ـ أن يعدّل من مبدأ اعتباطية arbitrariness الإشارة. هذا المبدأ ـ مع مبدأ خطية الدال ـ كانا المبدأين العامين الذين عزاهما سوسير

للإشارات اللغوية كافة. ولكن، إلى أي مدى يمكن أن يعمل اختيار الفونيمات في لغة معينة ليكون مأخوذاً بنظر الاعتبار بوصفه اعتباطياً؟ وهي القوانين الداخلية التي تتحكم بالعلاقة بين السمات المتميزة والوظيفية، وعلى سبيل المثال، ما هي القوانين الداخلية التي تتحكم بالعلاقة بين الكيفيات المتقابلة الخمس التي تكون نظام الصوامت في اللغة الفرنسية؟ وهنا، نصل إلى واحدة من المشكلات الأولية والجوهرية، وهي مشكلة تكوين الأنظمة الفونولوجية.

لكي أبدأ بخاتمة مناقشاتنا عن الأصوات والمعنى أريد أن ألخّص، بسرعة، النقاط التي أثيرت في محاضراتي الأولى. إن أصوات الكلام لا يمكن أن تفهم أو تحدد أو تصنف أو تفسر إلا في ضوء المهمات التي تنجزها في اللغة. ويجب أن يكون الوصف الحركي والاكوستيكي والسمعي لمادة الصوت تالياً لتحليل بنيوي لهذه المادة. وبتعبير آخر، يجب أن توضع الدراسة الإضافية لعلم الصوت في خدمة النظام الصوتي الذي هو جزء متمم للسانيات ـ إن النظام الصوتي الذي اعتمد، في أيامة الأولى، بصورة كبيرة جداً، على تجريبية ميكانيكية ونامية والموروثة من شكل قديم لعلم الصوت، يسعى اليوم أكثر فأكثر للتغلب على تلك البقايا القديمة. فمهمته أن يبحث في أصوات الكلام من خلال علاقتها بالمعاني التي تحملها، أي الأصوات منظوراً إليها بوصفها دوالاً، وأن يسلط الضوء، قبل كل شيء، على بنية العلاقة بين الأصوات والمعنى. وعند تحليل كلمة ما من وجهة نظر جانبها الصوتي فنحن نحللها إلى سلسلة من الوحدات أو الفونيمات المتميزة. وعلى الرغم من أن الفونيم عنصر يساعد على إبراز المعنى، إلا أنه، هو ذاته، خلو من المعنى. إن ما يميزه من كل العناصر أو المكونات اللغوية الأخرى، وبصورة أكثر عمومية من كل القيم السيميوطيقية، هو كونه رمزاً سلبياً فقط.

بالإمكان أن يحلل الفونيم إلى سمات متميزة. فهو حزمة من هذه السمات، وعليه فإن الفونيم ـ على الرغم من قدم ذلك فإنها ما زالت تصورات شائعة ـ هو كيان معقد: فليس الفونيم بل كل سمة من سماته المتميزة لا يمكن اختزالها فهي كيان تقابلي خالص. إذ تتموضع كل إشارة لغوية على محورين: محور التزامن ومحور التعاقب. إن الفونيم هو الكيان اللغوي الأصغر الذي يتوزع على هذين المحورين. وتقسم هذه السمات المتميزة، مرة ثانية، إلى فئة من الخصائص المتلازمة داخلياً التي تقيد إلى محور التزامن، وفئة من الخصائص العروضية Prosodic التي تتضمن المحور الآخر، أي محور التعاقب.

لقد نسب فرديناد دي سوسير للإشارة اللغوية خاصيتين أساسيتين عرضهما في مبدأين أساسيين. فأدى بنا تحليل الفونيم ـ ولا سيما تحليل مكوناته، أي الكيفيات المتميزة ـ إلى التخلي عن أحد هذين المبدأين، أي المبدأ الذي يحدد (الطبيعة الخطية Linear للدال). إن البحث في نظام الفونيمات يتيح لنا،أيضاً، أن نعيد تقييم المبدأ الآخر، (اعتباطية العلامة). وطبقاً لسوسير كان وليم دوايت ويتني William Dwigt Whitney رائداً للسانيات العامة في أمريكا، الذي وجه اللسانيات، في كتابه حياة اللغة ونموها The Life and Growth of language، المنشور عام 1875، الوجهة الصحيحة عبر تشديده على الطبيعة الاعتباطية للإشارات اللفظية.

أثار هذا المبدأ النزاع وخصوصاً في السنوات الحالية. حيث ذكر سوسير في كتابه المحاضرات: إن (مدلول) الكلمة لا يرتبط بأية علاقة داخلية بسلسلة الفونيمات التي تكون بمثابة دال للكلمة:

(إذ يمكن للمدلول، على حد سواء، أن يكون ممثلاً بوساطة أية فونيمات أخرى: ويبرهن على هذا عبر الاختلافات بين اللغات، وعبر الوجود الحقيقي للغات مختلفة: إن الفونيمات (b-ö-f) هي بمثابة دوال للمدلول ثور في اللغة الفرنسية من جهة، والفونيمات (ث ـ و ـ ر) هي بمثابة دوال للمدلول (ثور) في اللغة العربية من جهة أخرى. والآن فإن هذه النظرية تكون في تناقض صارخ مع الأفكار الأعظم فائدة والأعظم خصباً للسانيات السوسيرية. فسوف تجعلنا هذه النظرية نعتقد أن اللغات المختلفة تستخدم تنوعاً من الدوال تطابق مدلولاً شائعاً وغير متغير، لكن سوسير ذاته هو الذي دافع بشكل صحيح، في كتابه (المحاضرات)، عن النظرة القائلة بأن معاني الكلمات ذاتها تتغير من لغة إلى أخرى. فمجال كلمة boeuf ومجال كلمة (ثور) ليسا متطابقين، وسوسير ذاته ينوه، في الكتاب ذاته (بالاختلاف في القيمة بين الكلمة الفرنسية (mouton) والكلمة الانكليزية (sheep). فليست ثمة معنى قائم بذاته، إنما المعنى ينتسب دائماً إلى شيء ما نستخدمه كإشارة، فعلى سبيل المثال، نحن نفسر المعنى لإشارة لغوية أي المعنى لكلمة ما. إذ لا يوجد، في اللغة، مدلول من دون دال، ولا دال من دون مدلول.

يقول اللساني المحدث والأكثر عمقاً، أميل بنفينست Emile Benveniste، في مقالته (طبيعة الإشارة اللغوية Nature du signe Linguistique، التي ظهرت في المجلد الأول Acta linguistica عام 1939، بقول ـ بعكس سوسير ـ أن الارتباط بين الدال والمدلول ليس اعتباطياً، بل على العكس، إنما هو ارتباط ضروري). فمن وجهة نظر اللغة الفرنسية يكون المدلول boeuf معادلاً حتمياً للدال، أي المجموعة الصوتية، b-o-f. إذ يؤكد بنفينست (أن

الطرفين ارتسما معاً على ذهني) وهما يُستثاران، بصورة متبادلة، في كافة الظروف. حيث يوجد بينهما تكافل أساسي، ذلك أن المفهوم boeuf مشابه لحيوية الصورة الاكسوستيكية (b-o-f).

يتوسل سوسير بالاختلافات بين اللغات، لكن السؤال عن العلاقة الاعتباطية أو الضرورية بين المدلول والدال لا يمكن الجواب عنه، فعلاً، إلا بمراجعة حالة معنية للغة معينة. لنتذكر نصيحة سوسير اللاذعة: (سيكون من غير المعقول أن نرسم صورة بانوراميه لجبال الألب من وجهة نظر بضعة قمم تعود إلى العصر الجوارسي في وقت واحد، ذلك أن الصورة البانورامية يجب أن ترسم من زاوية مفردة وواحدة) ومن وجهة نظر لغتها المحلية، فإن الفلاحة من منطقة Francophone switzerland، من حقها أن تنذهل: إذ كيف يمكن أن نسمي الجبن (Käse) طالما أن (Fromage) هو اسمه الطبيعي الوحيد.

وبعكس أطروحة سوسير، فإن الارتباط بين الدال والمدلول، أو بتعبير آخر، الارتباط بين سلسلة الفونيمات والمعنى، هو ارتباط ضروري، ولكن العلاقة الضرورية الوحيدة بين الجانبين هو ارتباط يقوم على تجاور، أي على علاقة خارجية، في حين أن ارتباطاً يقوم على تشابه معين (أي يقوم على علاقة داخلية) هو ارتباط عرضي فقط. فهو يظهر، فقط، على سطح المعجم المفهومي، في كلمات معبرة وتوحي بمعانيها onamatopoeic مثل (كوكو cuckoo ـ الوقوقة)، (زكزاك Zigzag ـ خط متعرج)، و (كراك crack ـ قرقعة) إلخ... ولكن قضية العلاقة الداخلية بين الأصوات والمعنى لكلمة ما لا تستنفد بتلك الوسيلة. إن افتقارنا للوقت يحول دون أن نكون قادرين على أن نفعل أكثر من مجرد مقاربة هذه القضية

الدقيقة والمعقدة. قلنا أن السمات المتميزة، مع أنها تنجز وظيفة دلالية، فإنها هي ذاتها خلو من المعنى. فليست ثمة سمة مميزة مأخوذة بصورة منعزلة، ولا حزمة من سمات مميزة متزامنة (أي فونيماً ما) مأخوذة بصورة منعزلة، يمكن أن تعني شيئاً ما. فلا السمة الأنفية nasality بحد ذاتها ولا الفونيم الأنفي /N/ له بذاته معنى ما.

ولكن هناك سعياً لردم هذه الفجوة. حيث تثير، حميمية الارتباط بين أصوات كلمة ما ومعناها، لدى المتكلمين رغبة في أن يضيفوا علاقة داخلية إلى العلاقة الخارجية ـ التشابه إلى التجاور ـ لكي يكملوا المدلول عبر صورة أولية، وبسبب قوانين علم النفس العصبي للحس المتزامن Synaes thesia تستطيع المتقابلات الصوتية ذاتها أن تثير علاقات بإحساسات موسيقية ولونية وشمية ولمسية وغيرها من الإحساسات. فعلى سبيل المثال، إن التقابل بين فونيمات مرهفة وقاتمة له القدرة على الإيحاء بصورة مشرقة ومظلمة، محددة ومدورة، رقيقة وغليظة، خفيفة وثقيلة إلخ. إن هذه (الرمزية الصوتية Sound symbolism)، كما دعاها أحد باحثيها الأصليين، ادوارد سابير، هذه القيمة الداخلية للسمات المتميزة، على الرغم من كمونها، تظهر إلى الحياة حالما تجد توافقاً في معنى كلمة ما، وفي موقفنا الانفعالي والجمالي تجاه هذه الكلمة، وحتى بإزاء أزواج من كلمات ذوات معان متقابلة.

وفي اللغة الشعرية، التي تكتسب فيها الإشارة بحد ذاتها قيمة تلقائية autonomous، فإن هذه الرمزية الصوتية تصبح عاملاً فعلياً وتبدع نوعاً مكملاً للمدلول. إن الكلمتين التشيكيتين (نهار den) و (ليل noc) اللتين تحتويان على تقابل صائتي vocalic بين الرهافة

والقتامة، ربطتا بسهولة، في الشعر، بين إشراق الظهيرة والظلمة الليلية. وقد استنكر مالارميه Mallarme التعارض بين الأصوات والمعاني للكلمتين الفرنسيتين (نهار Jour) و (ليل Nuit). لكن الشعر يقصي، بصورة ناجحة، هذا الخلاف بأن يحيط الكلمة (نهار Jour) بألفاظ مرهفة صائتة، وأن يحيط الكلمة (ليل Nuit) بألفاظ قاتمة صائتة، أو بدلاً من ذلك، يسلط الضوء على متقابلات بنائية تكون في انسجام مع صوائت قاتمة ومرهفة، كالذي بين ثقل النهار ولطافة الليل.

إن البحث عن القيمة الرمزية للفونيمات، وكل فونيم يعد بوصفه كلاً، ينمي المجازفة بتفسيرات غامضة وتافهة لأن الفونيمات هي كيانات معقدة، حزمة من السمات المتميزة المختلفة. لقد غلفت هذه السمات بطبيعة متقابلة خالصة، وكل واحدة من تلك المتقابلات تسلم نفسها لعملية الحس المتزامن، كما أثبت ذلك بوساطة الوسيلة الأكثر إدهاشاً في لغة الأطفال.

إن كل شيء، بالنسبة لويتني، في شكل الإشارة اللغوية اعتباطي وتصادفي، بما في ذلك اختيار عناصرها المكونة. وبهذا الصدد لاحظ سوسير: (أن ويتني يذهب بعيداً جداً عندما يقول أننا انتخبنا الأعضاء الصوتية عن طريق الصدفة تماماً، وإن الإنسان قادر، على حد سواء، أن يختار إيماءة، وأن يستخدم صوراً بصرية بدلاً من الصور الاكوستيكية)، لقد أدرك أستاذ مدرسة جنيف (إشارة إلى سوسير)، بصورة صحيحة، أن الأعضاء الصوتية (هي بالتأكيد، وبطريقة معينة، مفروضة علينا من الطبيعة) لكن سوسير يعتقد، في الوقت نفسه، إن العالم اللساني الأمريكي (أي ويتني) كان على حق في نقطة جوهرية: (إن اللغة اتفاق، وإن طبيعة الإشارة المتفق

عليها لا تحدث اختلافاً). وذهب سوسير في مناقشة العلاقة بين (اللسانيات السكونية واللسانيات التطويرية) يتبعه دارسوه، إلى القول أنه ليس ثمة مكان، في علم اللغة (لمحددات طبيعية)، وإلى تأكيد (الطبيعة الاتفاقية الدائمية) لكل حالة في أية لغة، بالإضافة إلى أي تغير كان يحدث لهذه الحالة. إن مجموعة العناصر المتميزة لأية لغة كانت يمكن أن تكون تصادفية فقط، وإن أي واحد من تلك العناصر يمكن أن يستبدل بعنصر آخر، رغم الافتقار الكامل لأي تشابه مادي بالأول، وسيكون مغلفاً، أو في الحقيقة مجسداً، بالقيمة التمييزية ذاتها.

لقد شبه سوسير هذه الحالة بلعبة الشطرنج، التي يمكن للمرء فيها أن يستبدل قطعة تالفة بقطعة ذات شكل مختلف تماماً طالما أنه يمنحها الدور نفسه في اللعبة. كذلك تنشأ المسألة عن تشكيلة السمات المتميزة وعن تشكيلة الفونيمات الفاعلة، عما إذا كانت هذه التشكيلة هي، في الحقيقة، اعتباطية خالصة أم أنها ـ على الرغم من كونها ظاهرة اجتماعية واضحة ـ ليست كذلك، أي أنها شبيهة تماماً بالحقيقة ذاتها لاستخدام الأجهزة الصوتية (المفروضة علينا، بطريقة معينة، بوساطة الطبيعة).

لقد بيّنا أن السمات المميزة للفونيمات هي كونها كيانات متقابلة على نحو صارم. ويترتب على هذا أن خاصية متميزة لا تكون لوحدها، مطلقاً، في النظام الفونولوجي. وبسبب طبيعة التقابلات، ولا سيما الطبيعة المنطقية، فإن كل خاصية من هذه الخواص تدل ضمناً على مصاحبة خاصية مقابلة في النظام نفسه: فالطول لا يمكن أن يوجد من دون القصر، ولا النطق يمكن أن يوجد من دون الصمت، ولا الطبيعة المرهفة يمكن أن توجد من

دون الطبيعة القاتمة والعكس بالعكس.

وعليه فإن ثنائية المتقابلات ليست اعتباطية وإنما ضرورية. والمتقابلات هي ذاتها، كذلك، لا تكون لوحدها في النظام الفونولوجي. إن متقابلات السمات المتميزة يعتمد بعضها على بعض، أي أن وجود متقابل واحد يدل حتماً على إتاحته مصاحبة تقابل آخر أو الحيلولة دونه في النظام الفونولوجي نفسه، وعلى الشاكلة ذاتها فإن حضور سمة مميزة معينة واحدة يدل ضمناً على الغياب أو المثول الضروري (أو على الأقل المحتمل) لكذا وكذا من الخصائص المميزة في الفونيم نفسه، وهنا، مرة أخرى، يكون للاعتباطية مجال محدد جداً.

وبمعزل عن دراسة نمذجة التنوع الأوسع في الأنظمة اللغوية العالمية فإن التحليل البنيوي للغة في عملية التطور ـ تحليل لغة الأطفال وقوانينها العامة ـ وللغة في عملية الانحلال ـ لغة الحبسة ـ هو الذي يمكننا من تسليط الضوء على عملية اختبار، الفونيمات، والسمات المتميزة، وعلاقاتها المتبادلة، ويمكننا من الاقتراب أكثر من المبادىء الرئيسة لهذا الاختبار، ولهذا الاعتماد المتبادل كيما تكون في موقع لتأسيس وتفسير القوانين الكلية التي تكوّن البنية الفونولوجية للغات العالمية.

إن البحث المنهجي في الطريقة التي توضع فيها الموارد الفونولوجية لكي تستخدم في تكوين الأشكال النحوية ـ والذي استهلته مدرسة بادوين وحلقة براغ تحت اسم مورفولوجيا Morphology ـ يعد بتكوين جسر ضروري بين دراسة الصوت والمعنى، ما دام أن أحدهما يأخذ بنظر الاعتبار سلسلة المستويات اللغوية، وما هو أساسيّ بشكل خاص لكل واحد منها.

«ثبت المصطلحات»

ـ أ ـ

اتمولوجيا (دراسة تعنى بأصل الكلمات وتاريخها)	Etymology
اثنولوجيا (علم الأعراف البشرية)	Ethnology
أحادي المقطع	monosyllable
احتكاكي	Fricative
إحساس	sensation
اللغة الاسبانية	spanish language
استبطان	introspection
استفهام	interrogation
اللغة الاستونية	Estonian Language
أسطورة	myth
اللغات الاسكندنافية	scandinavian languages
اسكولائيون	scholastics
أسلي	apical
اسمي	Nominalist
أسناني	dental
اللغات الآسيوية	Asiatic languages
أشعة إكس	X-ray
أصوات إنسدادية	occlusives
اطراد النسق	monotony
اعتباطية	Arbitrariness
أعضاء صوتية	vocalorgans

Horizontal	أفقي
Acoustic	اكوستيكي
Albanian language	اللغة الألبانية
German language	اللغة الالمانية
Greek language	اللغة الاغريقية
Imperative	أمري
Displacement	انزياح
ontology	انطولوجيا (علم الوجود)
affricative	انفجاري احتكاكي
Emotive function	الوظيفة الانفعالية
nasality	أنفية (السمة)
vibratory	اهتزازي
Okrainian language	اللغة الأوكرانية
Irish language	اللغة الإيرلندية
Italian language	اللغة الإيطالية
cadence	إيقاع النغم

- ب -

prefix	بادئه
pavlovian	بافلوفي (نسبة إلى عالم النفس الروسي بافلوف)
Biblography	بيلوغرافيا
pharynx	بلعوم
Bulgarian Language	اللغة البلغارية
Structuralism	البنيوية
Polish language	اللغة البولندية

- ت -

Combination	تأليف
Homogenous	تجانس
contiguity	تجاور
Empiricism	تجريبية (المذهب التجريبي)
Cavity	تجويف
Hierarchy	تراتبية
Modulation	ترخيم
Turkish language	اللغة التركية
Simutaneity	تزامن
Isomorphism	تشاكل
Czech	تشيكي
Radiograph	تصوير إشعاعي
Constrictive	تطبيقي .
Succession	تعاقب
Phrase	تعبيرة
Expressive function	تعبيرية (وظيفة)
Exclamatory	تعجبي
Heterogeneous	تغاير
Utterance	تفوه
Notation	تنويت (وضع نظام لكتابة اللغة بالرموز)
Communication	تواصل
Turkic language	اللغة التوركية وتشمل: . التركية والاذربيجانية والتركمانية
Emphatic function	توكيدية (وظيفة)

Glottal catch	توقف مزماري

- ج -

Periodic talde	الجدول الدوري
Root	جذر
Gilyak Sakhalin	جلياك (لغة صربية قديمة، كان سكان جزيرة ساخالين يتكلمونها)
plural	جمع

- ح -

gramophonp	حاكي (فونوغراف)
Aphasia	حبسة
acuteness	حدة
Motor	حركي (محرّك)
Synaesthesia	ـ الحس المتزامن
pragu Linguistic circle	حلقة براغ اللغوية
Laryng	حنجرة
palate	حنك
soft palate	حنك رخو
Hard palate	حنك صلب
palatal	حنكي
pre palatal	حنكي أمامي

- خ -

Discourse	خطاب
Linear	خطي

- د -

Signifier	دال
pitch	درجة الرنين

- ذ -

Lingual	ذولقي

- ر -

Lax	رخاوة
Liquid	رخيم
stoics	الرواقيون
Russian language	اللغة الروسية
Romanian language	اللغة الرومانية
Resonance	رنين

- ز -

Cumul	زائدة متعددة الوظائف
Expiration	زفير

- س -

Slaviciah language	اللغة السلافية
Spoonerism	السبونرية (إنتاج الكلمات بالتلاعب بتغيير موقع الفونيمات)
Narrative	سردي
Slovak language	اللغة السلوفاكية
circumflex	السيركومفلكس (علامة على هيئة ^ توضع فوق الصوائت)
semiotics	السيميوطيقا

- ش -

شبه لين	Semi-vowel
شبه نفسي	Semi-psychological
شدة	intensity
لغات الشرق الأقصى	Far eastern languages
شفة	Lip
شفتاني	Bilabial
شفرة	code
شفوي	labial
شفوي أسناني	labiodental
شكل	Form

- ص -

صائت منبور أمامي	pretonic vowel
اللغة الصربية الكرواتية	serbo-croat language
صفيري	sibilant
صوائت	Vowels
صوامت	Consonants
صوتي	Vocal
اللغة الصينية	Chinese language

- ط -

طبقي	velar
طبقي أنفي	velar nasal
طبقي حنكي	velopalatal
الطبيعي	Naturalistic

- ظ -

الظاهراتية	Phenomenology

- ع -

عالم أصوات	Phonetician
عبارة	clause
عروض	prosodic
عقل (لوغوس)	Logos
علم الأحياء	Biology
علم الأمراض	pathology
علم الدلالة (السيمانطيقا)	Semantics
علم الصوت	phonetics
علم الصوت التاريخي	Historical phonotics
علم الصوت السكوني	Static phonetics
علم الصوت النفسي	psychophonetics
علم الصوت الوظيفي	functional phonetics
علم الفسلجة	physiology
علم النفس	psychology
علم النفس العصبي	Neuropsychology

- غ -

الغائية	Teleology

- ف -

اللغة الفرنسية	French language
فمي	Oral, buccal

Finnish language	اللغة الفنلندية
Phoneme	فونيم
front Phoneme	فونيم أمامي
Lateral Phoneme	فونيم جانبي
back Phoneme	فونيم خلفي

- ق -

Coptic script	كتابة قبطية
Kinship	قرابة
Incisors	قواطع
Caucasian language	اللغة القوقازية

- ك -

quantom	كم
korean language	اللغة الكورية
Entity	كيان

- ل -

Non-nasal	لا أنفي
Latvian language	اللغة اللاتفيانية
alveola	لثوي
alveolopalatal	لثوي حنكي
Affix, suffix, desinence	لاحقة
dystaxia	لانظمي
Tongue	لسان
Linguistics	لسانيات

Unrounded	لامدور
hyoid bone	العظم اللامي
Unconscious	لا وعي
Lithuanian language	اللغة الليتوانية

- م -

Transitive	متعدي
Vocalic triangle	المثلث العلي
Micrographic	مجهري
Voiced	مجهور
Axis	محور
Manuscript	مخطوطة
Signified	مدلول
rounded	مدور
spectrograph	مرسمة الطيف الصوتية
oscillograph	مرسمة الذبذبات (منوسات)
Orientalist	مستشرق
infinitive	مصدري
present	مضارع
lexical	معجمي
closed sound	مغلق (صوت)
open sound	مفتوح (صوت)
datire	مفعول به غير مباشر (حالة)
Accusative	مفعول به مباشر
singular	مفرد

syllable	مقطع
graphic image	مكتوبة (صورة)
centrifugal	مندفع بعيداً عن المركز
centripetal	مندفع نحو المركز
Logic	منطق
Monchu language	اللغة المنغولية
Momography	مونوغرافيا
Mora	المورا (وحدة قياس الطول الصوتي)
Morphome	مورفيم (أصغر وحدة صوتية دالة)
mythem	ميثيم (أصغر وحدة أسطورية)

- ن -

Stress	نبرة
Hind-grammarians	النحاة الهنود
grammer	نحو
Neogrammarians	نحويون جدد
Psychologism	النزعة النفسية
Genetic	نشوئي
Phonation	نطق
Articulation	نطق مفصل
System	نظام
phonology	النظام الصوتي
Metrists	نظامون

- هـ -

Inddo-Iranian language	اللغة ية + الايرانية
Hungarian language	الا نغارية
Duth language	الهولندية
Hieroglyphics	يروغليفية

- و -

Realist	واقعي
Chord	وتر
Vocal cords	وتران صوتيان

- ي -

Japanese language	اللغة اليابانية

«ثبت الإعلام»

ـ أ ـ

ـ ب ـ

- م -

- هـ -

- و -

المحتويات

محاضرات

في الصوت والمعنى

تطورت المناقشة في هذه المحاضرات التي قدمت الأفكار القيّمة و بوضوح ودقة كافيين. ولم يطور ياكوبسون مناقشاته المجددة والصعبة في بعض الأحيان، بتفصيل تام من دون توضيحها بأمثلة مستقاة من النطاق الواسع للغات، وغالباً من الشعر والفنون التشكيلية الحديثة كذلك. إن إحالته المنهجية على المفكرين العظام - الرواقيين Stoics، والاسكولائيين Scholastic، وبلاغيي عصر النهضة، والنحويين الهنود وآخرين كثيرين - تظهر اهتمامه الجاد لموضعة هذه الأفكار الجديدة وفقاً لعلاقاتها الصوتية ولينقل لذهن سامعه معنى تواصلية التاريخ والفكر. وفيما يتصل بياكوبسون، فإن نظام العرض يتبع - خطوة بعد خطوة - نظام الاكتشاف، وبذلك تنتج عن عرضه قوة درامية تشد سامعه، ومع وجود ثروة التأثير المسرحي في لحظة سياق النص بشكل كاسح وسريع من خلال قطع قصير، فإن العرض يخطو بسرعة نحو استنتاجاته التي تكون غير متوقعة أحياناً والتي تحمل القناعة دائماً.

وعندما أعيد قراءة محاضرات ياكوبسون اليوم اكتشف مرة أخرى ذلك التحفيز الفكري الذي شعرت به قبل أربع وثلاثين سنة. وفي ذلك الوقت لم أكن أعرف أي شيء تقريباً عن اللسانيات ولم يكن اسم ياكوبسون مألوفاً لدي.

كلود ليفي شتراوس

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص. ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب